

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_191049

UNIVERSAL
LIBRARY

ملك النهر الذهبى

الفصل الأول

فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَفِي بُقْعَةٍ جَبَلِيَّةٍ مُنْعَزِلَةٍ فِي
بِلَادِ إِسْتَرِيَا ، كَانَ هُنَاكَ وَادٍ خَصِيبٌ ، غَنِيٌّ بِكُلِّ
شَيْءٍ . وَحَوْلَ ذَلِكَ الْوَادِي كَانَتِ الْجِبَالُ أَشْمٌ ،
مُرْتَفَعَةَ الرَّأْسِ بِقَمَمِهَا الْمَكْسُورَةِ بِالشَّلْجِ ، تَنْحَدِرُ
مِنْهَا الْمِيَاهُ فِي سَلَالَاتٍ دَائِمَةٍ الْهَدِيرِ .

وَيَنْ هَذِهِ الْمَسَاقِطِ مَا كَانَتْ مِيَاهُهُ تَنْحَدِرُ
إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ عَلَى صَفْحَةٍ صَخْرَةٍ بَاسِقَةٍ ، فَإِذَا
مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَغَطَّى الظَّلَامُ كُلَّ شَيْءٍ

فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَإِنَّ أَشْعَثَهَا لَا تَزَالُ مُنْطَبِعَةً عَلَى
مِيَاهِ ذَلِكَ الْمَسْقَطِ ، حَتَّىٰ إِنَّهَا كَانَتْ تُشْبِهُ مَسِيلاً
مِنَ الذَّهَبِ . لِذَلِكَ كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْمَكَانِ يُلَقَّبُونَ
هَذَا النِّهْرَ بِالنِّهْرِ الذَّهَبِيِّ .

وَكَانَ عَجِيبًا أَلَّا تَجِدَ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْجُدَاوِلِ
مَا يَنْحَدِرُ إِلَى الْوَادِي نَفْسِهِ ، بَلْ إِنَّهَا جَمِيعًا كَانَتْ
تَسْقُطُ عَلَى السُّفُوحِ النَّائِيَةِ ، وَتَجْرِي بَيْنَ سُهُولٍ
مُتَمَدَّةٍ وَبَيْنَ بِلَادِ آهَلَةٍ . وَكَانَتْ السُّحُبُ دَائِمَةً
الَّتَجْمَعُ حَوْلَ تِلْكَ الْقِمَمِ الْبَارِدَةِ الْمُتَوَجِّعَةِ بِالثَّلُوجِ ،
حَتَّىٰ إِذَا مَا كَانَ الصَّيْفُ ، وَجَفَّ ذَلِكَ الْمَكَانُ

وَأَحْتَرَقَ مَا فِيهِ ، كَانَ ذَلِكَ الْوَادِي نَادِيًا مَاطِرًا .
وَكَانَتْ ثِمَارُهُ وَفِيرَةً ، وَكَانَ حَصِيدُهُ غَنِيًّا ، وَكَانَ
تَفَاحُهُ أَحْمَرَ زَاهِيًّا ، وَعِنَبُهُ أَزْرَقَ شَهِيًّا ، وَكَانَ غَنِيًّا
بِنَبِيذِهِ وَبِعَسَلِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ أُعْجُوبَةً لِمَنْ عَرَفَهُ ،
فَكَانُوا يَدْعُونَهُ « وَادِي الْكَنْزِ » .

وَكَانَ هَذَا الْوَادِي مِنْ نَصِيبِ إِخْوَةِ ثَلَاثَةٍ :
شِفَارْتِسَ ، وَهَانِزَ ، وَجُلُوكَ . وَكَانَ الْأَوْلَادُ مِنَ أَقْبَحِ
الْأَنْسِ خَلْقًا ، بِأَهْدَابِ غَزِيرَةٍ ، وَعُيُونٍ ثَقِيلَةٍ نَائِمَةٍ ،
لَا تَكَادُ تَرَى مَا خَلْفَهَا ، مَعَ أَنَّ صَاحِبَهَا قَدْ يَكُونُ
مُحَدِّقًا النَّظَرَ إِلَيْكَ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْعُيُونِ الْبَلِيدَةِ .

وكان الأخوانِ يَعملانِ في فِلاحةِ «وادي الكنز»
هذا، وكانا عارفينِ بأصول الفِلاحةِ وفنونِها ، فكانا
يَقْتُلانِ كلَّ مَنْ لا يَدْفَعُ ثَمناً لِعَمامِهِ . يَقْتُلانِ
الطُيورَ الّتي تنقُرُ الثَمَرَ وَالفاكِهةَ ، وكانا يَقْتُلانِ
القنَافِذَ خوفاً من أنْ تَمُصَّ ألبانَ البقرِ ، وكانا
يضعانِ السُّمَّ للعصافيرِ الّتي تَجْمَعُ فُتاتَ الخُبزِ من
المَطْبَخِ ، وتلكَ الّتي تُغَنِّي على أشجارِ اللِّيمونِ .
وكانا لا يَدْفَعانِ أجراً لِمَنْ يَستخدِمُ ما بِهِ مِنَ الناسِ ،
حتى إذا أمتنعَ الرّجلُ عنِ العملِ ، تخاصما معه ،
وطرداه شرّاً طردٍ .

وليس غريبا أن يجمع كلُّ مَنْ سارَ عَلَى نَهْجِهِمَا
ثروةً عريضةً ، وهكذا فعلا . وكان لهما في جمع
أُمَالِ طُرُقٍ ووسائلٍ ، مِنْهَا أَنَّهُمَا كَانَا يَخْزُنَانِ الْغَلَّةَ
حتى إِذَا أَشْتَدَّ الْطَلْبُ عَلَيْهَا بَاعَاهَا بِضِعْفِ ثَمَنِهَا ،
فَجَمَعَا بِذَلِكَ الْذَهَبَ أَكْوَامًا ، ومع ذلك لم يُسْمَعْ
عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَدَّمَا دِرْهَمًا وَاحِدًا ، أَوْ فَلَسًا فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ
وَالْإِحْسَانِ .

وما كان هذانِ الْأَخْوَانِ يَذْهَبَانِ يَوْمًا لِلصَّلَاةِ ،
وَكَانَا يَتَضَجَّرَانِ لِدَفْعِ نَصِيبِهِمَا مِنَ الضَّرَائِبِ ، ولم
يَكُنْ يَحْمِلُ لهُمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ حُبًّا أَوْ صَدَاقَةً ، لِمَا

انطوت عليه نفسهما من قسوة وغلٍ وضغينة ،
حتى أطلق عليهما من عرفهما « الأخوانِ
الأسودانِ »

* * *

وكان أخوهما الأصغرُ « جُلوك » يختلفُ عنهما
في كل شيءٍ : يختلفُ عنهما في الخلقِ وفي الخلقِ ،
لم يتخطَّ إذ ذاك عامه الثاني عشرَ ، صبوحَ الوجهِ ،
أزرقَ العينينِ ، له قلبٌ يخفقُ للرحمةِ والإنسانيةِ .
وما كان جُلوك ليتفقَ مع أخويه في فعالهما هذه ،
وأصدقُ من هذا أن نقولَ إنهما ما كانا ليتفقا معه في

جِبَاعِهِ ، وَلَمْ يَرْضِيَا أَنْ يَنْحُوا نَحْوَهُ .

وَكَانَ أَخَوَاهُ يُوَكِّلَانِ إِلَيْهِ مُهَمَّةَ الطَّهْيِ ، إِذَا مَا
كَانَ لَدَيْهِمَا شَيْءٌ يَطْبُخَانِهِ ، وَقَلِيلًا مَا يَكُونُ ذَلِكَ .
لِأَنَّهُمَا كَانَا بَخِيلَيْنِ فِي طَعَامِهِمَا ، كَمَا كَانَا شَحِيحَيْنِ
فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ .

وَكَانَ جُلُوكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، يَقُومُ بِنِظَافَةِ
الْأَحْذِيَةِ وَبِكَنْسِ الْبَيْتِ . وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَغْسِلُ
الْأَطْبَاقَ وَيَأْكُلُ مَا عَلَيْهَا مِنْ بَقِيَّةِ الطَّعَامِ الَّذِي
يُخَلِّفَانِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَزَاؤُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا سَيْلٌ مِنْ
الطَّعْمَاتِ تَأْدِيبًا لَهُ وَتَخْوِيفًا ، وَهَكَذَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى



وفي بعض الأحيان يغسل الأطباق ويأكل ما عليها

هذا النَّسَقِ ، الى أن جاء صَيْفٌ ماطرٌ عَبَثَ بِكُلِّ مَا نَبَتَ
حولَ ذلكِ الوادى ، فلمْ تَكْدِ السَّنَابِلُ تَمْتَلِيْ وَالْبِرَاعُ
تَتَفْتَحُ حَتَّى حَمَلَتْهَا المِياهُ الجَارِفَةُ الى البَحْرِ . أَمَّا الكُرُومُ
فقد تَقَصَّفتُ أَعوادُها ، وَأَمَّا الغَلَّةُ فقد أَتَلَفَتْهَا الحُشْرَاتُ
أما وادى الكَنْزِ ، فكانتِ الحِياةُ فيه سَهْلَةً ، تَهْطِلُ
عليه الأمطارُ عند ما تكونُ الى المطرِ حاجَةً ، وتَشْرُقُ
عليه الشمسُ دافئةً عند ما تكونُ محتجبةً فى كُلِّ مكانٍ .
وَ كان كُلُّ من جاء لِيَشْتَرِيَ من غَلَّةِ هَذَيْنِ الأَخوينِ
يَرِجِعُ وهو يَقْضُ أَنْذلَ القِصَصِ عِنَهما ، اذ أَنَهما كانا
يَطْلُبانِ مِنْهُمُ أَمَمانًا باهِظَةً ، يَتَدَرانِها كيفِ شاءا ،

حتى إن الفقراء الذين كانوا في عُسرٍ وحاجةٍ ، ولا
يقدرُونَ على دفعِ هذه الأثمانِ ، كانوا يتَضَوَّرُونَ جُوعًا
تحت جُدرانِ يَتِيهِمَا ، دون أن تأخذَهُمَا بهم رحمةٌ أو
شفقةٌ .

وحدث في يومٍ من أيامِ الشتاءِ ، وكان قارًا
باردًا أن ذهبَ هذانِ الأخوانِ الى حاجةٍ ، وتركَا
« جُلوك » الصغير - بعد أن حذراه كعادتهما - يرمى
الشِّواءَ وأمراهُ أن يُقفلَ البابَ في وجهِ كلِّ طارقٍ .
وهكذا جلس « جُلوك » بجانبِ المِدْفَاقَةِ يَصْطَلِي ،
اذ كان المطرُ يَنهَمِرُ إذ ذاك انهمارًا .

أخذ « جُلوك » ينظر الى الشواء وقد بدأ يَنْضِجُ ،
ويُحَدِّثُ نفسه ، وَيَعْجَبُ كَيْفَ أَنْ أَخْوِيهِ لَمْ يَدْعُوا
يوماً ما ضَيْفًا لِلغِذَاءِ مَعَهُمَا . فِينمَا هُمَا يَطْعَمَانِ هَذَا
اللَّحْمَ الشَّهِيَّ ، نَرَى الكَثِيرَ ، لَا يَجِدُ لُقْمَةً يَتَبَلَّغُ بِهَا .
وَكَمْ كَانَ حَسَنًا لَوْ أَنَّهُمَا أَشْرَكَ بِمِثْلِ هَؤُلَاءِ ، فَغَرَسَا
بِذَلِكَ الرَّحْمَةَ فِي قُلُوبِهِمْ !

ولم يكذب ينتهي من حديثه هذا حتى سمع نقرأ
عنيفاً على الباب ، أشبه شيءً بِمَجْبُطِ الرِّيحِ . لأنه
كان واثقاً من أن أحداً من الناس لا يجرؤ على طريق
بأبه بهذه الشدة والعنف .

ولكن لا ، ليست هي الريح ، لأن الطارق
قد أعاد النقرَ بشدةٍ ، كأنه على عجلٍ ، وما هو بخائفٍ
وما هو بهائبٍ مَغَبَّةٍ عمليه . ذهبَ « جلوك » الى
النافذةِ ، وأطلَّ منها ليرى من الطارقِ :

وما أشدَّ عجبَهُ حين رأى رجلاً قزماً لم يره
من قبلُ ، له سِحْنَةٌ مُحَاسِيَّةٌ قد أفتحَتْها الأجواءُ ؛
أما أنفه فكان طويلاً متمدداً . أما خذُه فكان
مُسْتَدِيرًا ، أحمرَ اللونِ ، كأنَّ صاحبه كان ينفخُ النَّارَ
يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ . وكان يَنْظُرُ بعَيْنَيْنِ مَرِحَتَيْنِ من
خلفِ أهدابِ طويْلَةٍ حَرِيرِيَّةٍ . أما شعرُهُ فقد وخطَهُ

الشَّيْبُ ، طَوِيلٌ ، مُتَدَلِّ عَلَى أَكْتافِهِ ، لَهُ شَوَارِبُ
طَوِيلَةٌ مَفْتُولَةٌ حَجَبَتْ فَمَهُ .

وكان هذا السيّد الذي لم تَبْلُغْ قامته أقداماً
خمسةً يلبسُ قَلَنْسُوءَةً في مثلِ هذا الطولِ ، حلاها
بريشةٍ سوداءٍ طَوِيلَةٍ . وكان يجرُّ ذيلاً وراءه ،
ويحمِلُ على كَتْفَيْهِ قَبَاءً عَظِيماً كَثِيراً الأردانِ ، فكان
بهذا القباءِ وهذا الذيلِ - وقد حمّله الرِّيحُ - كأنّه
أحدُ تلك الطُّيُورِ ذَوَاتِ الذُّيُولِ الطَوِيلَةِ الرَّاقِصَةِ

لهذا ، ليس عجباً أن يَقِفَ « جُلُوكِ » مُسَمَّراً
في مكانه ، وهو يُعْمِنُ النَظَرَ دون أن يَفْتَحَ فَمَهُ الى

هذا الزائرِ الغريبِ . وَينما كان هذا الزائرُ
يَتَلَفَّتُ لِيُصَلِّحَ قَبَاءَهُ الَّذِي حَمَلَتْ أُرْدَانَهُ الرِّيحُ ،
إِذَا بِهِ يَرَى رَأْسًا صَغِيرًا يُطَلُّ عَلَيْهِ بِعُيُونٍ مَفْتُوحَةٍ
وَفَمَّ مُنْفَعِرٍ ، فَنظَرَ إِلَيْهِ ذَلِكَ السَّيِّدُ الصَّغِيرُ وَقَالَ :
« أَهَكَذَا تُجِيبُ عَلَى نِدَاءِ طَارِقٍ مِثْلِي قَدْ بَلَّغَهُ الْمَطْرُ ؟
أَلَا دَعَنِي أَدْخُلُ » .

وكان ذلك الطارقُ حقًّا مُبَلِّغًا ، فقد تدلت
ريشته الطويلةُ بين ساقَيْهِ كَأَنَّهَا ذَيْلُ جَرَوْ مَضْرُوبٍ ،
وَكُنْتَ تَرَى الْمَاءَ يَسِيلُ مِنْ طَرَفِي شَوَارِبِهِ إِلَى جُيُوبِ
مِعْطَفِهِ ، كَأَنَّهَا جَدُولُ طَاحُونٍ مِنْ طَوَاحِينِ الْهَوَاءِ .

فنظر اليه « جُلوك » وقال : اسْمَحْ لِي يَا سَيِّدِي
أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي آسِيفٌ جِدًّا الْأَسْفِ لِعَدَمِ سَمَاحِي لَكَ
بِالدُّخُولِ ...

فَقَالَ السَّيِّدُ : « مَاذَا تَقُولُ ؟ »

— « حَقًّا يَا سَيِّدِي إِنَّنِي لَا أَقْدِرُ ، إِنَّنِي لَا أَقْدِرُ
أَنْ أَدْعَكَ تَدْخُلُ ، لِأَنَّنِي إِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كَانَتْ
نَصِيبِي مِنَ أَخَوَيَّ الضَّرْبَ دُونَ رَحْمَةٍ - وَلَكِنْ
مَاذَا تُرِيدُ يَا سَيِّدِي ؟ »

— « مَاذَا أُرِيدُ ! أَلَا تَرَى أَنَّنِي أُرِيدُ دِفْئًا
وَهَاهِي نَارُكَ مَلْتَهَبَةً ، تَرْقُصُ فِي الْحُجْرَةِ دُونَ أَنْ



فنظر اليه جلوك وقال

يُحْسِنُ بِهَا أَحَدٌ . أَلَا فَاسْتَمِعْ لِي أَنْ أَصْطَلِي ، وَلَا أُرِيدُ
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ »

وَكَانَ « جُلُوكَ » قَدْ أَطْلَّ طَوِيلًا مِنَ النَّافِذَةِ
وَشَعَرَ بِبُرُودَةِ الْهَوَاءِ . ثُمَّ لَمَّا أَدَارَ وَجْهَهُ وَرَأَى النَّارَ
ذَاكِيَةً مُلْتَهَبَةً تُرْسِلُ أَسِنَّةَ الْجَمْرَاءِ إِلَى الْمَدْخَنِ
كَأَنَّهَا تَلْحَسُهَا وَقَدْ عَبَقَتْ رَائِحَةُ الشَّوَاءِ بِالْمَكَانِ ،
حَرَكَتِ الشَّفَقَةَ قَلْبَهُ وَقَالَ لَهُ :

« إِنْ الْجُودَ بَارِدٌ حَقًّا ، سَادَعُكَ تَدْخُلُ ، وَلَكِنْ
بَعْضَ سَاعَةٍ لَيْسَ إِلَّا » .

ذَهَبَ « جُلُوكَ » إِلَى الْبَابِ وَفَتَحَهُ . وَيَبْنِ

كان هذا السيد الصغيرُ في طريقه إلى حيثُ النارُ ،
عصفتِ الرياحُ في البيتِ حتى إنها رجَّتْ أرْ كانهُ ،
ثم نظَرَ الى جُلوكِ وقال له : « لا تخفْ يا بُنَيَّ العزيزَ
سوفَ أوضِّحُ ذلكَ لِإِخْوَيْكَ » .

فقال « جُلوكِ » : لا تفعلْ ياسيدي مثلَ هذا ،
إِذْ أَنِّي لَنْ أَدْعَكَ حتى يحضُرَا ؛ إِلا إذا أردتَ
مَوْتِي .

فقال السيدُ العجوزُ : « إِنِّي آسِفٌ حَقًّا لِأَسْمَعِ
هذا ، ولكنْ إِلى متى سَتَسْمَحُ لي بالبقاء ؟ »
— « إِلى أَنْ ينضجَ هذا الشَّواءُ ياسيدي ،

وها قد بدأ يحمرُّ لونه » .

سار الضيفُ الصغيرُ إلى المطبخِ ، وجلسَ على مقعدٍ
وَاطِيٍّ حَوْلَ المِدْفَاقَةِ وقد أدارَ قَلْدَسُوتَهُ الطويلةَ إلى
المَدخَنَةِ ، إِذْ أَنَّ سَقْفَ الحُجْرَةِ كانَ واطِيًّا .

نظرَ إليه « جُلوك » وقد جلسَ يُديرُ الشَّوَاءَ
وقال له : سَوفَ تَجِفُّ مِلابِسُكَ سَريعاً يا سَيِّدِي .

ولكنَّ تِلْكَ المِلابِسُ كانتَ تَقطُرُ المِياهُ من كلِّ
ثَنِيَّةٍ فيها على نارِ المِدْفَاقَةِ التي أَخَذَ يَحْبُو أَوَارِها ،
وأخذتَ تَسْتَحِيلُ فَحِماً ورَماداً ، حتَّى إنَّ « جُلوك »
وقد شاهدَ الماءَ يَجْرِي كأنه جِداوِلُ الزُّبُقِ على أرضِ

الحُجْرَةَ ، لَمْ يَرَ بُدْأً مِنْ أَنْ يَسْأَلَهُ أَخَذَ قَبَائِهِ
بَعِيداً .

- « لا ، شكرالك » .

- « دَعْنِي يَا سَيِّدِي أَجْفَفُ قَلْبُنَا لِسُوءَتِكَ إِذَا ؟ »

- « شَكَرًا لَكَ ، لَا تَفْعَلْ » .

فَنظَرَ إِلَيْهِ « جُلُوكِ » مُتَرَدِّدًا . وَقَالَ :

« وَلَكِنْ - وَلَكِنَّكَ يَا سَيِّدِي - حَقًّا ، وَلَكِنَّكَ

أَطْفَأْتَ النَّارَ » . فَأَجَابَ الزَّائِرُ « لِهَذَا سَوْفَ يَأْخُذُ

السُّوَاءَ وَقْتًا طَوِيلًا حَتَّى يَنْضَجَ ! »

وَقَدْ أَثَارَ سُلُوكُ الزَّائِرِ الْعَجَبَ وَالْحَيْرَةَ فِي نَفْسِ

« جُلوك » حتى إنه حوّل وجهه إلى الشواء وهو يفكر طويلاً .

فقطع الزائر حبلَ السكوتِ وقال :

« إن الشواء يبدو شهياً ، ألا من قطعةٍ ؟ »

« هذا مُحالٌ »

— « ولكنني جائعٌ جدًّا ، إذ أني لم أذُقْ

شيئاً منذُ أمسٍ ، ولا أظنُّ أخويك يفقدانِ قطعةً

صغيرةً من هذا الشواء الكثيرِ . »

وقد كان صوتُ الزائرِ حنوناً ، أثارَ الشفقةَ

في نفسِ « جُلوك » فأجابهُ : « إنني وُعدتُ بقطعةٍ

من هذا الشّواءِ فهي لك ، على ألا تطلبَ أكثرَ
منها .

فقال السيدُ الصغيرُ : « إنك ولدٌ طيبٌ حقاً »
فذهب « جُلوك » يسنُّ المُدِيَةَ وَيُشَجِّعُ نَفْسَهُ
بقوله « إنني غيرُ آبهٍ ، ولو ضُربْتُ لأجلِ ذلكَ »
ولكنه ما كادَ يَقْطَعُ شيئاً من ذلكِ الشّواءِ
حتى سَمِعَ طَرْقاً عَنيفاً على البابِ ؛ فوثبَ الزائرُ
من مكانهِ يَينمًا أَخَذَ « جُلوك » يُلصِقُ القِطْعَةَ
مكانها من الشّواءِ ، ثُمَّ جَرَى جَزَعًا لِيَفْتَحَ البابَ
عندئذٍ دوى صوتُ شِمارتس في المكان :

— « أَهْكَذَا تَدْعُنَا نَنْتَظِرُ طَوِيلًا تَحْتَ الْمَطْرِ »

ثم رمى بِمَظَلَّتِهِ في وجه « جُلُوكِ » الصغيرِ .
وَأَعْقَبَهُ « هَانِزٌ » لَأَطِمًا أَذُنُهُ يِنَمَا كَانَ يَتَّبِعُ أَخَاهُ
إِلَى الْمَطْبِخِ .

فَمَا كَادَ يَفْتَحُ « شِفَارَتَيْسِ » بَابَهُ حَتَّى صَاحَ
« يَا إِلَهِي ، الرَّحْمَةَ .. »

فَأَجَابَ الضَّيْفُ الصَّغِيرُ « آمِينَ » . وَقَدْ وَقَفَ
فِي وَسَطِ الْحُجْرَةِ يَحْمِلُ قَلَنْسُوتَهُ فِي يَدِهِ ، وَهُوَ
يَنْحَنِي طَوِيلًا .

فَالْتَقَطَ « شِفَارَتَيْسِ » هِرَاوَةَ ، وَجَرَى غَاضِبًا

وَرَاءَ « جُلُوكِ » وَهُوَ يَصِيحُ : « مَنْ هُوَ هَذَا ؟ »

— « إِنِّي يَا أَخِي لَا أَعْرِفُهُ ... »

فصاح « شقارتيس » مُزْمَجِرًا « وَلَكِنْ كَيْفَ

دَخَلَ هُنَا ؟ »

فأجاب « جُلُوكِ » يائسا :

لقد كان مُبَدَّلًا بِالْمَطَرِ ..

وما كاد يسمعُ ذلكَ حتى كانت تلكَ الهِراوةُ

تَنحَدِرُ عَلَى رَأْسِ جُلُوكِ وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا وَضَعَ

الضَيْفُ الصَّغِيرُ قَلْبَسُوتَهُ فِي طَرِيقِهَا فَثَرَّ الْمَاءُ فِي

كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْحُجْرَةِ . وَأَعْجَبُ مِنْ

ذلك أن شِقارتس ما كادَ يامِسُ تلكَ القَلَنْسُوتَةَ
بِهِرَاوَتِهِ حَتَّى انْفَلَتَتْ مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَتْ تَدْوُرُ عَلَى
نَفْسِهَا حَتَّى وَقَعَتْ فِي رُكْنِ الْحُجْرَةِ .

فصاحَ شِقارتسُ بِحَنَقٍ وَأَدَارَ وَجْهَهُ نُحُوَ السَّيِّدِ
« مِنْ أَنْتَ يَا سَيِّدِي ؟ »

وصاحَ هانزُ « وَمَا أَنْتَ صَانِعٌ هُنَا ؟ »

فأجابَ الضَّيْفُ بِصَوْتٍ مُنْكَسِرٍ : « إِنِّي

يَا سَيِّدِي شَيْخٌ كَبِيرٌ ، أَخَذْتُ طَرِيقَ بِيَابِكُمْ

فَرَأَيْتُ النَّارَ مُلْتَهَبَةً ذَاكِيَةً فَسَأَلْتُ هَذَا الصَّغِيرَ

دِفْنًا وَأَصْطِلَاءً بِضَعِ سَاعَةٍ ...

فأجابه شِمارتس « أَسْمَحُ الْآنَ بِالْخُرُوجِ ؟ لَقَدْ
مَلَأْتُ لَنَا الْبَيْتَ مَاءً حَتَّى أَضْحَى كَأَنَّهُ الْمَغْسِلَةُ »
— « وَلَكِنْ أَلَا تَرَى يَا سَيِّدِي أَنَّ رِجْلِي

قَدْ هَدَّهَ الْكَبِيرُ وَيَبِضُّ شُعُورُهُ الْإِيَّامُ ؟ »

فأجابه هانز « نَعَمْ ، وَهِيَ غَزِيرَةٌ كَفِيلَةٌ بِأَنَّ
تُدْفِئُكَ ! اخْرُجْ »

— « وَلَكِنِّي جَائِعٌ جِدًّا ، أَلَا مِنْ قِطْعَةٍ

خُبْزٍ أَتَبْلَعُ بِهَا ؟ »

فصاحَ شِمارتس « قِطْعَةٌ خُبْزٍ ؟ هَلْ تَظُنُّ أَنَا

لَا نَعْرِفُ مَاذَا نَصْنَعُ بِخُبْزِنَا حَتَّى نُوزَعَهُ عَلَى أَمْثَالِكَ

من ذوى الأُنُوفِ الحُمراءِ؟»

وَأَعْقَبَهُ هانز هانزًا . ولماذا لا تَبِيعُ رِيشَتَكَ

الطويَلةَ؟ .. اُخْرُجْ!

فأجابهُ الضَّيْفُ الصَّغِيرُ « لُقْمَةٌ خُبْزٍ لَيْسَ الْإِلاَّ

فصاحَ شِقارتسُ « اُخْرُجْ! »

— « أَرْجوكُم يَاسادَتِي . . . »

فَزَجَرَ هانزُ « سَوْفَ أُرِيكَ » ثم قَبَضَ عَلَيَّ

عُنُقِهِ ، وَلَكِنَّهُ ما كادَ يَمِيسُ ذلِكَ السَيِّدَ ، حتَّى

تَدَخَّرَجَ وَهُوَ يَدُورُ عَلَي نَفْسِهِ كما فَعَلَتِ الهِراوَةُ ،

إلى أَنْ انْكَفَأَ عَلَيْها فى رُكْنِ العُرْفَةِ



ولكنه ما كاد يماس ذلك السيد

فَأَخَذَ الْغَضْبُ مِنْ شِقَارْتَسُ كُلِّ مَا أَخَذَ ، وَجَرَى
إِلَى ذَلِكَ الضَّيْفِ لِيُخْرِجَهُ مِنْ الْبَيْتِ ، وَلَكِنَّهُ
مَا كَادَ يَأْمِسُهُ بِيَدِهِ حَتَّى كَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الرُّكْنِ
حَيْثُ هَانِزُ وَالْمِهْرَاوَةُ ، وَقَدْ دَكَ رَأْسَهُ عَلَى الْحَائِطِ .
عِنْدَ ذَلِكَ سَارَ الضَّيْفُ إِلَى رُكْنِ الْعُرْفَةِ الْآخِرِ
وَهُوَ يَدُورُ عَلَى نَفْسِهِ كَأَنَّهُ الْمَغْزَلُ ، وَأَخَذَ قَبَاوَةَ
الطَوِيلِ يَلْتَفُّ حَوْلَهُ ، ثُمَّ أَحْنَى قَلْبَهُ عَلَى رَأْسِهِ
« لَأَنَّهُ إِذَا تَرَكَهَا قَائِمَةً نَفَذَتْ مِنْ سَقْفِ الْعُرْفَةِ »
ثُمَّ جَدَلَ شَارِبَهُ ، وَنَظَرَ إِلَى الْآخَرِينَ بِجُمُودٍ وَقَالَ :
« سَادَتِي : عَمُوا صَبَاحًا ، وَإِذَا مَا دَقَّتِ السَّاعَةُ مُؤْذِنَةٌ



بانتصافِ الليلِ فسوفَ أكونُ زائرَكم ، ولكنكم
وقد قبضتمُ عنى يدَ الإحسانِ ، ثقُوا بأن زورتي
هذه سوفَ تكونُ الأخيرةَ »

فوثبَ شِشارتس من مكانه وهو يزجرُ « إننى
إذا لقيتكَ مرةً أخرى فى هذا المكانِ ... » ولكنه
قبلَ أن يأتى على آخرِ كلامه ، كان السيدُ الصغيرُ
قد تركَ البيتَ بعد أن قفلَ بابَه بعنفٍ ، وما كادَ
يمرُّ على النافذةِ ، حتى كانت تلك السحُبُ المتجمعةُ
المعلقةُ فى سماءِ الوادى ، قد استحالتُ طوفاناً من
الأمطارِ .

عند ذلك أدارَ شفارتس وجهَهُ الى جُلُوك مُتوعداً
« هذا جميلٌ حقاً ياسيد جُلُوك ، آه لو أننى رأيتك
مرَّةً أُخرى ... وَلَكِنْ مَنْ الَّذِي قَطَعَ اللَّحْمَ ؟

فأجابه جُلُوك « أَلَمْ تَعِدْنِي بِقِطْعَةٍ مِنْهُ ؟ »

— « وَمَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَقْطَعَهَا وَالشُّوَاءُ سَاخِنٌ ،

حتى تَأْخُذَ الدِّسَمَ لِنَفْسِكَ . لَئِكَ سَوْفَ لَا أَعِدُّكَ
شيئاً إلا بعد عهدٍ طَوِيلٍ ، فَازْهَبْ إِلَى مَخْزَنِ الْفَحْمِ
حتى أَدْعُوكَ .. »

وهكذا خَرَجَ جُلُوك حَزِيناً يَأْسِياً . وَأَخَذَ

الْأَخْوَانَ يَا كَلَانَ مِنَ اللَّحْمِ مَا شَاءَ ، حَتَّى إِذَا

فَرَاغًا خَزَنًا مَا بَقِيَ مِنْهُ فِي الْقَمِطْرِ ، وَأَخَذَا يَحْتَسِيَانِ
النَّبِيذَ «

وِيَالِهَا مِنْ لَيْلَةٍ هَوَّجَاءَ ، عَصَفَتْ فِيهَا الرِّيحُ ،
وَانْهَمَرَ فِيهَا الْمَطَرُ سُيُولًا دُونَ هَوَادَةٍ . فَقَامَ
الْأَخْوَانِ يُحْكِمَانِ قَفْلَ كُلِّ نَافِذَةٍ وَبَابٍ قَبْلَ أَنْ
يَذْهَبَا إِلَى حَيْثُ يَرْتُدَّانِ مَعًا فِي الْحُجْرَةِ .

فَلَمَّا دَقَّتِ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ، هَبَّ الْأَخْوَانِ
فَجَاءَتْ عِنْدَ سَمَاعِ صَدْمَةٍ عَنِيفَةٍ ، فَإِذَا الْبَابُ قَدْ فُتِحَ
بِشِدْقٍ ، رُجَّ لَهَا الْبَيْتُ رَجًّا مِنْ أَسَاسِهِ .

فصاح سفارتس جزعاً ما هذا ، ما حصل ؟
فأجابه السيّد الصّغيرُ « ليسَ من أحدٍ غيري »
عند ذلك وثبَ الأخوانِ من سريريهما ،
وجلسا مُحدقانِ النّظرِ في الحجرةِ المظلمةِ ، التي قد
امتلاتْ بالماء . ولكنهما سرعان ما اكتشفا في
ضوءِ الهلالِ الباهتِ الذي وجدَ طريقه من كوةٍ من
السّقفِ ، فُقاعةً هائلةً تسبِحُ على مياهِ العُرْفَةِ كأنها
قطعةٌ من الفلّينِ وعلى ظهرها وسادة وثيرة
قد ترَبَّعَ عليها ذلكَ السيّدُ الصّغيرُ بملابسهِ وقلنسوتهِ
التي وجدَ لها الآنَ مكاناً بعد أن خرِقَ السّقفُ .



فصاح شقارتس جزعاً ماهذا ، ماحصل ؟

فَنظَرَ إِلَيْهِمَا وَقَالَ « إِنِّي آسَفٌ جَدًّا الْأَسْفُ
لِأَنِّي جَعَلْتُ لَكُمَا هَذِهِ الْغُرْفَةَ غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلنَّوْمِ ،
وَلَيْسَ لِي إِلَّا أَنْ أُشِيرَ عَلَيْكُمَا بِالذَّهَابِ إِلَى غُرْفَةِ
أَخِيكُمَا الْأَصْغَرِ ، لِأَنَّ السَّقْفَ فِيهَا مَا زَالَ مَكَانَهُ »
وَمَا كَادَ يَأْتِي عَلَى آخِرِ كَلَامِهِ هَذَا حَتَّى هَرَعَا
إِلَى حُجْرَةِ جُلُوكِ وَهُمَا يَرْتَجِفَانِ مِنَ الْبَلَلِ وَالْجَزَعِ .
وَلَكِنَّ الضَّيْفَ الصَّغِيرَ لَمْ يَكُنْ قَدِ انْتَهَى
مِنْ كَلَامِهِ ، إِذْ أَنَّهُ أَخَذَ يَصِيحُ خَلْفَهُمَا « سَتَجِدَانِ
بِطَاقَتِي عَلَى مَنُضَدَةِ الْمَطْبِخِ . . تَذَكَّرَا ، الزِّيَارَةَ
الْأَخِيرَةَ . . »

فَأَخَذَ شِفَارَتَسِ يَهِيْمِنِمُ « وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ
كَذَلِكَ » وَفِي لِحْظَةٍ اخْتَفَتِ الْفُقَاءَةُ .

* * *

وَجَاءَ الْفَجْرُ فِي أُلْهَيَّةِ ، حَتَّى إِذَا بَدَأَ النُّورُ
يَتَفَتَّحُ نَظَرَ الْأَخْوَانَ مِنْ نَافِذَةِ جُلُوكِ الصَّغِيرِ إِلَى
وَادِي الْكَنْزِ ، فَإِذَا بِأَخْرَابٍ قَدْ مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ فَلَمْ
يَبْقَ مِنْ آثَارِهِ إِلَّا أَكْوَامُ الرَّمْلِ ، فَقَدِ اكْتَسَحَ
الطُّوفَانَ كُلَّ شَيْءٍ : الْأَشْجَارَ ، وَالزَّرْعَ ، وَالْمَاشِيَةَ
وَلَمْ يُخَلِّفْ إِلَّا بَرَكَ الْوَحْلِ وَالطِّينِ .

فَرَحَفَ الْأَخْوَانَ وَهَمَا يَنْتَفِضَانِ جَزَعًا إِلَى

المطْبُخِ ، فَرَأَى الْمَاءَ قَدْ شَقَّ طَرِيقَهُ إِلَى طَابِقِ الْبَيْتِ
السُّفْلِيِّ وَحَمَلَ تِيَارَهُ كُلَّ مَا صَادَفَهُ مِنْ أَمْوَالٍ أَوْ غَلَّةٍ
وَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا قُصَاصَةً بَيْضَاءَ مِنَ الْوَرَقِ قَدْ كُتِبَ
عَلَيْهَا بِحُطٍّ مُتَمَاجٍ مُضْطَرَبٍ :

سيرة الكريه
الخرسانية

الفصل الثاني

لقد كان سيدُ الرِّيحِ الغَرِيبَةِ عندَ وَعْدِهِ ،
فَمِنْذُ تِلْكَ الزَّوْرَةِ لَمْ يَعْذُ يَرَاهُ أَحَدٌ فِي وَادِي الكَنْزِ
وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ تَأَمَّرَ مَعَ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ ، مِنْ
الرِّيحِ الغَرِيبَةِ فَحَذَوْا حَذْوَهُ

وَحَالِ الحَوْلِ. وَلَمْ تُبَلِّ قَطْرَةٌ مِنْ المَطَرِ أَرْضَ
ذَلِكَ الوَادِي ، الَّذِي اسْتَحَالَ أَكْوَامًا جَرْدَاءَ مِنْ
الرَّمْلِ الأَحْمَرِ ، هَذَا بَيْنَمَا كَانَتْ السُّهُولُ الَّتِي تُجَاوِرُهُ

خضراء يانعة لم تعصف بها الرياح ولم تحرقها
الشمس القائظة

ولمّا لم يقدر الأخوان على جلاذ غضب السماء
لم يجدوا بداً من الهجرة تاركين تراثهم الميّت ،
نازحين الى الشهول القريبة ليكدحوا في سبيل
اللقمة . إذ لم يبق من آثار ذلك المال إلا قطع من
آنية ذهبية عتيقة هي كل ما يدل على ذلك الغنى
المندثر .

وهكذا شدّ الأخوان رحالهما ، وبينما
كانا في الطريق الى مدينة كبيرة تلفت

شِقَارَتَسِ إِلَى هَانَزِ وَقَالَ :

« وَمَا تَرَى لَوْ أَنَا احْتَرَفْنَا الصِّيَاغَةَ ؟ أَلَا تَرَى

أَنَّهَا حِرْفَةٌ يَسْهُلُ فِيهَا الْعِشُّ وَنَجِيدٌ فِيهَا خَلْطٌ

الذَّهَبِ بِالنُّحَاسِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِفَعْلَتِنَا أَحَدٌ ؟ »

وَوَجَدَتِ الْفِكْرَةَ اعْتِبَارًا وَتَقْدِيرًا عِنْدَ

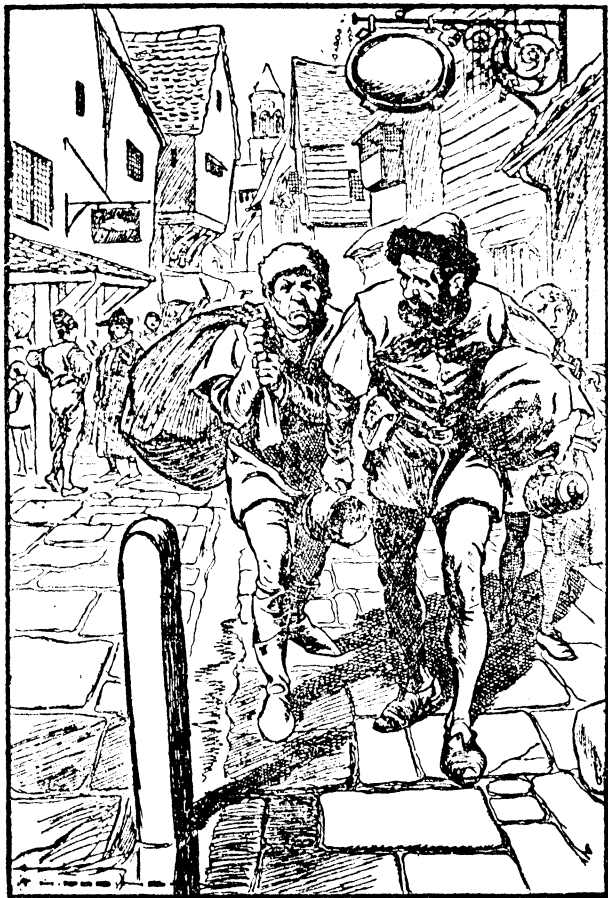
الْأَخَوَيْنِ ، حَتَّى إِذَا مَا هَبَطَا تِلْكَ الْمَدِينَةَ ، اسْتَأْجَرَا

كَبِيرًا وَأُسْتَعْلَمَا بِصِيَاغَةِ الذَّهَبِ . وَلَكِنَّ تِجَارَتَهُمَا

لَمْ تُصَادِفْ رَوَاجًا وَنَجَاحًا ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ

الْمَدِينَةِ لَمْ يَثْقُوا تَمَامَ الْوُثُوقِ بِتِلْكَ الْبِضَاعَةِ الزَّائِفَةِ ،

كَمَا أَنَّ هَذَيْنِ الْإِخْوَيْنِ إِذَا مَا بَاعَا جَانِبًا مِنْ



وما ترى لو أننا احترقنا الصباغة ؟

هذه السّاعة الزّائفة ، كانا يترُ كان جُلوك يرقُبُ
الكبيرَ ، ويذهبان الى الحانَةِ القريبةِ ليصْرَفَا كلَّ
ما جمَعاهُ في الشَّرابِ دونَ حسابٍ .

وَأَخَذَ مَا عِنْدَهُمَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى رُوَيْدًا رُوَيْدًا
دونَ أَنْ يَشْتَرِيَ غَيْرَهُ ، حتّى لَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ التَّرَاثِ
القَدِيمِ إِلَّا كَوْزٌ كَبِيرٌ كَانَ لِجُلُوكِ هَدِيَّةً مِنْ عَمِّ
لَهُ ، وَكَانَ هَذَا الْكَوْزُ عَزِيزًا عَلَى جُلُوكِ لَا يَفْتَرِقُ
عَنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ جُلُوكِ يَشْرَبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاءَ وَاللَّبْنَ .
وَكَانَ هَذَا الْكَوْزُ عَتِيقًا فِي صِيَاغَتِهِ . ذَا قَبْضَةٍ
كَأَنَّهَا خُصَلَتَانِ مِنَ الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ ، مَا يَظُنُّ النَّازِرُ

إليها إلا أنها من فتائل الحرير لا من سبيك الذهب
وتتدلى هاتان الخصلتان الى مثل لحية وشاريين
تُحيط بوجهٍ أحمرٍ دائرٍ ، ذى عَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ ،
لا يكادُ أحدٌ يشربُ من هذا الكوزِ دونَ أنْ تُعْمِنَا
فيه النَّظَرَ ، ولقد جَزَمَ شِفَارَتَسُ مرَّةً أنه ما كَادَ
يُفَرِّغُ هذا الكوزَ من نَبِيذِ بلادِ الرِّينِ سَبْعَ عَشْرَةَ
مرَّةً حتى لَمَحَ هَاتَيْنِ العَيْنَيْنِ كَأَنَّهما تَعْمَزَانِهِ
بِحُفُونِهِمَا .

ولما جاء دَوْرُ هذا الكوزِ ، لَكِي يُحْيِلَهُ
الأخوانِ الى مَلاعِقَ ، تَحَطَّمَّ قَلْبُ جُلُوكِ المَسْكِينِ

أَسَى عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُبْرِ الْأَ الضَّحَكَ عِنْدَ
أَخُوَيْهِ ، اللَّذِينَ رَمَى بِالْكُوزِ فِي الْكَبِيرِ ، وَذَهَبًا
إِلَى الْحَانَةِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ جُلُوكَ يَرَعَى الْبُودَقَةَ حَتَّى
إِذَا مَا ذَابَ الذَّهَبُ أَحَالَهُ قُضْبَانًا مُعَدَّةً لِلطَّرْقِ

وَمَا إِنْ ذَهَبَ الْأَخْوَانِ حَتَّى تَزُودَ جُلُوكَ
بِآخِرِ نَظْرَةٍ مِنْ صَدِيقِهِ الْقَدِيمِ وَهُوَ فِي الْبُودَقَةِ
وَقَدْ تَلَا شَتَّ خُصَلِّ الشَّعْرِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْفُهُ الْأَحْمَرُ
وَتَانِكَ الْعَيْنَانِ الْبَرَّاقَتَانِ الَّتِي كَانَتِ النَّارُ قَدْ زَادَتْ
نَظْرَاتِهِمَا شِدَّةً وَحِدَّةً

وَذَهَبَ جُلُوكَ إِلَى النَّافِذَةِ بَعْدَ أَنْ أَضْجَرَهُ

الجلوسُ بِجَانِبِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ ، وَكَانَتْ تِلْكَ النَّافِذَةُ
تُطَلُّ عَلَى سَلْسِلِ الْجِبَالِ الَّتِي تُحِيطُ بِوَادِي الْكَنْزِ
وَكَانَتْ أَظْهَرَهَا جَمِيعًا تِلْكَ الْقِمَّةُ الْعَالِيَةُ الَّتِي يَنْحَدِرُ
مِنْهَا النَّهْرُ الذَّهَبِيُّ . وَكَانَ الْوَقْتُ مُسَاءً ، وَمَا إِنْ حَوْلَ
جُلُوكَ نَظْرَهُ إِلَى تِلْكَ الْجِبَالِ حَتَّى رَأَى أَنَّ الشَّمْسَ
الْغَارِبَةَ قَدْ صَبَغَتْ صُخُورَهَا بِصِبْغَةِ حَمْرَاءِ قُرْمُزِيَّةٍ ،
وَقَدْ انْعَكَسَتْ عَلَى الشُّجْبِ الْمُتَمَاوِجَةِ عَلَى رُؤُوسِهَا
فَجَعَلَتْهَا كَأَنَّهَا الْأَلْسِنَةُ النَّارِيَّةُ . أَمَا النَّهْرُ فَكَانَ
أَكْثَرَ هَذِهِ جَمِيعًا لَمَعَانًا يَتَحَدَّرُ مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ
كَأَنَّهُ سَيْلٌ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ ، قَدْ عَلَتْهُ هَالَةٌ

من قَوْسٍ قُزَحٍ يَظْهَرُ حِينًا وَيَخْتْفَى حِينًا فِي رِذَاذِ الْمَاءِ
الْمُتَسَاقِطِ

وَبَعْدَ أَنْ أَدْمَنَ جُلُوكَ النَّظَرَ إِلَيْهِ قَالَ لِنَفْسِهِ
بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ : « لَوْ أَنَّ هَذَا النَّهْرَ حَقًّا مِنَ الذَّهَبِ ،
لَكَانَ وَلَا شَكَّ شَيْئًا عَجَبًا ! »

وَإِذَا بِصَوْتٍ مَعْدِنِي يَرِنُ بِجَانِبِ أُذُنِهِ قَائِلًا :
« كَلَّا ! إِنَّهُ لَنْ يَكُونَ يَا جُلُوكَ ! »

فَوَثَبَ جُلُوكَ مِنْ مَكَانِهِ مُنَادِيًا « رُحْمَاكَ يَا اللَّهُ
مَنْ هَذَا ؟ » . وَلَكِنْ مَا مِنْ مُجِيبٍ . وَأَخَذَ
يَبْحَثُ فِي أَرْجَاءِ الْغُرْفَةِ ، وَتَحْتَ الْمِنْضَدَةِ ، وَأَخَذَ

يَتَلَفَّتْ خَلْفَهُ مَرَّاتٍ عَدَّةً ، عَلَّاهُ يَكْتَشِفُ أَحَدًا
فَلَمْ يَجِدْ . وَبَعْدَ أَنْ كَلَّ مِنَ الْبَحْثِ جَلَسَ فِي
مَكَانِهِ الْأَوَّلِ عِنْدَ النَّافِذَةِ .

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَتَكَلَّمْ جُلُوكَ بَلْ أَخَذَ يَتَخَيَّلُ
كَمْ يَكُونُ جَمِيلًا لَوْ أَنَّ مِيَاهَ ذَلِكَ النَّهْرِ قَدْ
اسْتَحَالَتْ ذَهَبًا خَالِصًا ؟

عِنْدَئِذٍ رَنَّ هَذَا الصَّوْتُ أَوْضَحَ مِنْ ذِي قَبْلُ :

« لَنْ يَكُونَ جَمِيلًا يَا بُنَيَّ ! »

فَصَاحَ جُلُوكَ : « يَا اللَّهُ ، مَنْ هَذَا ؟ »

ثُمَّ أَخَذَ يَبْحَثُ مِنْ جَدِيدٍ عَنِ صَاحِبِ هَذَا

الصَّوْتِ ، أَخَذَ يَبْحَثُ فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ
الْغُرْفَةِ ، وَفِي الْقَمَاطِرِ ، وَأَخَذَ يَتَلَفَّتُ خَلْفَهُ وَيَدُورُ
حَوْلَ نَفْسِهِ مُعْتَقِدًا أَنَّ صَاحِبَ هَذَا الصَّوْتِ واقِفٌ
خَلْفَهُ ، وَلَمْ يَصْمُتْ حَتَّى سَمِعَ الصَّوْتَ مِنْ جَدِيدٍ .
وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ يُغْنَى وَلَا يَتَكَلَّمُ
يُغْنَى بِسُرُورٍ وَغَبْطَةٍ « لَلَّ لَلَّ لَا .. » نَعْمَةٌ مُتَعَابِقَةٌ
كَأَنَّهَا صَوْتُ الْمَغَلَاةِ عَلَى النَّارِ . فَذَهَبَ جُلُوكَ إِلَى
النَّافِذَةِ وَلَكِنَّهُ تَأَكَّدَ أَنَّ الصَّوْتَ يَنْبَعُثُ مِنْ بَيْنِ
جُدْرَانِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَبْحَثُ فِي الْمَدَّورِ السُّفْلِيِّ
وَفِي الدَّوْرِ الْعُلْوِيِّ ، وَلَكِنَّهُ تَيَقَّنَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ

يُنْبَعِثُ مِنْ تِلْكَ الْحُجْرَةِ ، وَقَدْ صَارَ أَسْرَعَ نِعْمَةً
وَأَكْثَرَ وُضُوحًا « لَلَّ لَلَّ لَلَّا ... »

وَعَلَى حِينِ فِجَاءَةِ اِكْتِشَافِ جُلُوكِ أَنْ الصَّوْتِ
أَشَدُّ وُضُوحًا عِنْدَ الْكَبِيرِ ، فَجَرَى إِلَيْهِ وَفَتَحَ بَابَهُ
وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ . إِنَّهُ حَقًّا عَلَى صَوَابٍ ، إِذْ أَنْ ذَلِكَ
الصَّوْتِ لَمْ يَكُنْ مَصْدَرُهُ الْكَبِيرَ فَقَطْ ، بَلْ إِنَّهُ
يُنْبَعِثُ مِنَ الْبُودَقَةِ ، وَسَرَّعَانَ مَا كَشَفَ غِطَاءَ
الْبُودَقَةِ وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبَهُ عِنْدَ مَا تَيَقَّنَ أَنَّ
تِلْكَ الْبُودَقَةَ تُغْنِي ! فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ جَرَى
إِلَى رُكْنِ الْعُرْفَةِ ، وَهُوَ مَبْهُوتٌ فَاعْرُ الْفَمِ

حتى صَمَتَ ذلكَ العِناءُ ، واستَحَالَ ذلكَ النِّعمُ الى

كلامٍ مفهومي:

— « أَهْلًا بِكَ ! »

فلم يُجِبْ جُلُوكَ .

فصاحتِ البُودَقَةُ ثَانِيَةً « أَهْلًا بِكَ يَا ابْنِي

جُلُوكَ .. »

فَجَمَعَ جُلُوكَ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ شَجَاعَةٍ وَجُرْأَةٍ ،

وَرَاخَ نَحْوَ البُودَقَةِ وَأَخْرَجَهَا مِنَ الكِبْرِ وَأَخَذَ

يُوعِنُ النِّظَرَ فِيهَا فَوَجَدَ مَا فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ قَدْ ذَابَ

وَصَارَ سَطْحُهُ أَمْلَسَ ، كَأَنَّهُ المَرَاةُ ، وَلَكِنَّهُ بَدَلًا مِنْ .

أَنْ يَجِدَ وَجْهَهُ مُنْعَكِسًا عَلَى سَطْحِهَا ، إِذَا بِهِ يَرَى
وَجْهَ صَدِيقِهِ الْقَدِيمِ بِأَنْفِهِ وَعُيُونِهِ يُحْمَلِقُ إِلَيْهِ مِنْ
خَلْفِ ذَلِكَ الذَّهَبِ الْمُدَابِّ ، وَقَدْ صَارَ لَوْنُهُ أَكْثَرَ
حُمْرَةً مِنْ ذِي قَبْلُ .

عِنْدئذٍ رَنَّ الصَّوْتُ مِنْ الْبُودَقَةِ مَرَّةً أُخْرَى

« هَلُمَّ يَا ابْنِي جُلُوكِ وَاسْكِبْنِي مِنَ الْبُودَقَةِ . . . »

وَلَكِنْ جُلُوكِ كَانَ مَبْهُوتًا مُشْتَتَ الْفِكْرِ

حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ .

وَرَنَّ الصَّوْتُ بِشِدَّةٍ « أَلَا تَسْمَعُنِي ؟ هَلُمَّ

وَاسْكِبْنِي ! »

ولكن جُلوک لم يفتأ في مكانه ..

ثم عاودَ الصَّوتُ الكلامَ « أَلَا تَسْمَعُ

فَتَسْكُبُنِي مِنْ هَذِهِ الْبُودَقَةِ؟ إِنَّنِي أَتْلَهَّبُ مِنَ الْحَرِّ »

عِنْدَ ذَلِكَ فَقَطَّ بَدَأَ جُلوکُ يَتَحَرَّكُ ، وَيَكْتَشِفُ مِنْ

جَدِيدِ الْقُدْرَةِ عَلَى اسْتِعْمَالِ لِسَانِهِ . فَاَنْدَفَعَ إِلَى الْبُودَقَةِ

وَأَمَّا هَا لَيْسَ كَبَّ مَا فِيهَا مِنْ ذَهَبٍ . وَلَكِنَّهُ بَدَلًا

مِنْ أَنْ يَرَى ذَلِكَ الْمَعْدِنَ الْمُنْصَهَرَ يَجْرِي مِنَ الْبُودَقَةِ

إِذَا بِقَدَمَيْنِ دَقِيقَتَيْنِ تُطْلَانِ مِنَ الْإِنَاءِ تَتَّبِعُهُمَا سَاقَانِ

وَذَيْلٌ مِعْطَفٌ ، ثُمَّ ذِرَاعَانِ مَقْبُوضَتَانِ ثُمَّ رَأْسٌ ذَلِكَ

الصَّدِيقِ الْقَدِيمِ . حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ رَأَى جُلوکُ



إذا بقدمين دقيقتين تطلان . .

قَرْمًا ذَهَبِيًّا لَا يَبْلُغُ طُولَهُ قَدَمًا وَنِصْفَ قَدِيمٍ يَقِفُ
أَمَامَهُ عَلَى أَرْضِ الْعُرْفَةِ .

فَنظَرَ الْقَرْمُ بِابْتِسَامٍ إِلَى جُلُوكِ ثُمَّ أَخَذَ يَمُدُّ
سَاقِيَهُ أَوْلَا ثُمَّ ذِرَاعِيَهُ ثُمَّ يَهْرُ رَأْسَهُ الصَّغِيرَ كَأَنَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ أَنَّ أَجْزَاءَهُ قَدْ ضُمَّتْ بَعْضُهَا
إِلَى بَعْضٍ ضَمًّا صَحِيحًا . هَذَا بَيْنَمَا كَانَ جُلُوكِ
وَاقِفًا وَقَدْ عَقَدَتْ الدَّهْشَةُ لِسَانَهُ .

وَكَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ الصَّغِيرُ يَلْبَسُ إِزَارًا مِنْ
نَسِيجِ الذَّهَبِ دَقِيقِ الْحَبْكِ تَتَمَاجُ عَلَيْهِ الْأَلْوَانُ
كَأَنَّهُ الصَّدْفُ ، وَعَلَى هَذَا النَّسِيجِ تَتَدَلَّى جَدَائِلُ

شَعْرِهِ الطَّوِيلِ مُتَمَوِّجَةً ، حَتَّى إِنْ جُلُوكَ لَمْ يَمِزْ
أَنْ تَنْتَهَى ، فَكَأَنَّ أَطْرَافَهَا كَانَتْ تَذُوبُ فِي
الهُوَاءِ .

يَدَانِ وَجْهَهُ لَمْ يَكُنْ يَدُكُ عَلَى تِلْكَ الدَّقَّةِ
فِي الصَّنَاعَةِ ، فَكَأَنَّ مَلَامِحَهُ جَامِدَةٌ ذَاتَ سِحْنَةٍ
نُحَاسِيَّةٍ ، تُعَبِّرُ تَعْبِيرًا صَاحِبِيًّا عَنِ شَخْصِيَّةِ صَاحِبِهَا
الصَّغِيرِ .

وَمَا إِنْ أَنْتَهَى الْقَرَمُ مِنْ فَحْصِ نَفْسِهِ ، حَتَّى
أَدَارَ عَيْنَهُ نَحْوَ جُلُوكَ ، وَأَخَذَ يُعْمِنُ النَّظَرَ إِلَيْهِ دَقِيقَةً
أَوْ اثْنَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ لَهُ « لَا أَظُنُّ ذَلِكَ يَا ابْنِي جُلُوكَ ! »

ولقد كانت هذه الملاحظة المتبورة صريخةً
شاذةً لبدء المحادثة، ولكنه ربما كان يقصدُ بها
ربطَ الحديثِ بتلك الملاحظة التي أبداها إليه من
قبل وهو في البودقة. ومهما يكن من الأمرِ
فإن جدوك لم يشأ أن يبحث أو يناقش هذه
الملاحظة

فأجاب جدوك بلطفٍ ووداعةٍ « ألا تظنُّ ذلك
ياسيدي؟ »

فقال القزمُ متمماً حديثه « لا ! لا أظنُّ ذلك »
ثم أرخى قلنسوته على جبهته، وأخذ يذرعُ أرضَ

الغُرْفَةَ جَيِّئَةً وَذُهُوبًا ، وَهُوَ يَرْفَعُ سَاقِيَهُ عَالِيًا ،
وَيَضْرِبُ بِهَا الْأَرْضَ بِشِدَّةٍ .

وهكذا وَجَدَ جُلُوكَ فُرْصَةً لِلتَّفْكِيرِ ،
وَاسْتِعْرَاضِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ ، فَوَصَلَ إِلَى أَنَّ مِنَ الْخَطَايَا
أَنَّ يُظْهِرَ الْخُوفَ مِنْ هَذَا الزَّائِرِ الصَّغِيرِ ، ثُمَّ تَغْلِبَ
حُبُّ الاسْتِطْلَاعِ عَلَى جَزَعِهِ فَرَاحَ يَبْدَأُ ضَيْفَهُ
بِالسُّؤَالِ قَائِلًا بِشَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ

« ائْتِمِحْ لِي يَا سَيِّدِي أَنْ أَسْأَلَكَ ، أَلَسْتَ كُوْزِي ؟
فَمَا سَمِعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّغِيرُ حَتَّى أَدَارَ وَجْهَهُ
وَمَشَى بِمُخْطَى وَثِيْقَةٍ إِلَى جُلُوكَ ، وَأَجَابَهُ وَهُوَ يَرْفَعُ

قامتهُ الى نهايتها :

« إِنِّي مَلِكُ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ »

وَمَا إِنْ أَنْتَهَى حَتَّى أَدَارَ وَجْهَهُ وَأَخَذَ يَذْرَعُ
أَرْضَ الْحُجْرَةِ مِنْ جَدِيدٍ بِمُخَطَّوَاتٍ مَدِيدَةٍ ، كَأَنَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يُهَيِّئَ الْفُرْصَةَ لِسَمَاعِهِ حَتَّى تَذْهَبَ عَنْهُ
الدَّهْشَةُ مِنْ سَمَاعِهِ تَصْرِيحُهُ الْأَخِيرَ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ
تَحَوَّلَ إِلَى حَيْثُ جُلُوكُ وَوَقَفَ صَامِتًا كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ
أَنْ يَسْمَعَ تَعْقِيْبًا عَلَى كَلَامِهِ .

وَكَانَ جُلُوكُ قَدْ أَجْمَعَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ سُؤَالَ الْأَمَامَا ، مَهْمَا

كَلَّفَهُ الْأَمْرُ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ قَالَ لَهُ :

« أرجو أن تكونَ جَلالَتُكمُ بِخَيْرٍ ! »

وَلَكِنَّ الضَّيْفَ الصَّغِيرَ لَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يُجِيبَ

عَلَى سُؤَالِ جُلُوكِ الرِّقِيقِ المَهْدَبِ ، بَلْ أَخَذَ يَقُولُ :

« انْتَبِهْ إِلَى مَا أَقُولُ . إِنِّي أَنَا مَلِكُ مَا تَدْعُونَهُ أَيُّهَا

النَّاسُ بِالنَّهْرِ الذَّهَبِيِّ . وَلَقَدْ سَجَنَيْتَنِي فِي ذَلِكَ الكُوزِ

- الَّذِي خَلَّصْتَنِي مِنْ سِجْرِهِ - مَلِكُ غَشُومٍ أَشَدُّ

مَنِي قُوَّةً . وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ شَرَاهَةَ أَخْوَيْكَ

وَسُوءَ فِعْلِهِمَا بِكَ دَفَعْتَنِي ذَلِكَ لِيَكُنِّي أَكُونَ فِي

مَعُونَتِكَ . فَانْتَبِهْ إِلَى مَا أَقُولُهُ لَكَ .

« إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْجَحُ فِي الصُّعُودِ إِلَى قِمَّةِ هَذَا

الجبل الذي ينبع منه النهر الذهبى ، ويلقى فيه
بثلاث قطرات من الماء المقدس ، فان ماء النهر
يستحيل له - وله وحده - ذهباً خالصاً . ولكن
من يفشل في محاولته الأولى فانه يفشل الى الأبد ،
ومن يلقي في النهر بماء غير مقدس فانه يستحيل الى
صخرة سوداء ! «

وما إن انتهى من حديثه حتى أدار ظهره
وأخذ يسير إلى حيث الموقد وثب في لهيها
المتأجج . فأخذ لونه يستحيل أحمر فأبيض ثم
غدا شفافاً كأنه لهيب من النور ثم أخذ يرقص

حِينًا حَتَّى تَلَّاشِي .

لَقَدْ اخْتَفَى مَلِكُ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ !

فَصَاحَ جُلُوكَ وَهُوَ يَجْرِي إِلَى الْمَدْخَنَةِ بَاحِثًا

عَنهُ :

« يَا كُوزِي .. يَا كُوزِي .. يَا كُوزِي الْعَزِيزَ »

الفصل الثالث

ما كَادَ مَلِكُ النُّهْرِ الذَّهَبِيِّ يَخْتَفِي عَلَى النُّحُورِ
الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ ، حَتَّى دَخَلَ
هَانِزَ وَشِقَارْتَسَ يَصِيحَانِ وَيَضِجَانِ مِنَ السُّكْرِ .

وَلَكِنَّهُمَا عِنْدَ مَا اكْتَشَفَا أَنَّ مَا تَبَقَّى لَدَيْهِمَا
مِنْ ثَرْوَةٍ قَدْ ضَاعَ ، جُنَّ جُنُونَهُمَا وَطَارَ السُّكْرُ
مِنْ رَأْسَيْهِمَا ، وَأَنْهَالًا عَلَى جُلُوكِ الصَّغِيرِ ضَرْبًا
وَلَكُمَا ، وَلَمْ يَتْرُكَاهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَلَّتْ أَذْرِعُهُمَا

فَارْتَمِيَ عَلَى مَقْعَدَيْنِ حَوْلَهُ يُسْتَرِيحَانِ مِنْ نَسَبِ
اللَّكْمِ وَالضَّرْبِ ، وَيَسْأَلَانِهِ عَمَّا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ
لِتَبْرِئَةَ نَفْسِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ جُلُوكِ إِلَّا أَنْ رَوَى لَهُمَا قِصَّتَهُ
مِنْ جَدِيدٍ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُصَدِّقَا مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا .
بَلْ زَادَتْهُمَا حَنْقًا عَلَيْهِ فَقَامَا يَضْرِبَانِهِ بِأَشَدِّ مِنْ ذِي
قَبْلُ حَتَّى هَبَطَتْ قُوَاهُمَا وَذَهَبَا لِلنَّوْمِ .

وَجَاءَ الصَّبَاحُ ، وَجَاءَ مِنْ جَدِيدٍ يَسْأَلَانِ جُلُوكِ
الَّذِي لَمْ يَحْدُ عَنْ ذِكْرِ مَا رَوَاهُ لَهُمَا مِنْ قَبْلُ ، حَتَّى
وَلَدَ فِيهِمَا إِحْرَارُهُ ثِقَةً بِكَلَامِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ تَدَاوَلَا فِي حَلِّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْعَجِيبَةِ
هُنَيْهَةً ، اِخْتَلَفَا فِيمَنْ يُجَرِّبُ حَظَّهُ أَوَّلًا ، حَتَّى جَرَّهُمَا
الْخُلْفُ إِلَى الْقِتَالِ ، فَجَرَدَ كُلُّهُمَا سَيْفَهُ فِي وَجْهِ
أَخِيهِ . وَكَانَ الْقِتَالُ عَنِيفًا أَثَارَ خَوْفَ الْجِيرَانِ وَفَزَعَهُمْ ،
فَلَمَّا عَجَزُوا عَنِ التَّوَسُّطِ بَيْنَهُمَا لَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنْ
الِاسْتِعَانَةِ بِرِجَالِ الشَّرْطِ .

وَمَا كَادَ يَسْمَعُ هَانِزَ ذَلِكَ حَتَّى هَرَبَ وَاخْتَفَى ،
وَاقْتَدَ شِقَارْتَسَ إِلَى الْمَخْفَرِ حَيْثُ قُضِيَ عَلَيْهِ بِغَرَامَةٍ
يَدْفَعُهَا ، وَلَمَّا كَانَ مُفْلَسًا لِأَنَّهُ أَنْفَقَ آخِرَ دِرْهَمٍ مَعَهُ
فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ ، أُرْسِلَ إِلَى السَّجْنِ إِلَى أَنْ يَدْفَعَ



فجر دكل منهم سيفه في وجه أخيه

ما قُضِيَ عَلَيْهِ بِهِ .

ولما سَمِعَ هانز ما جرى لأخيه سُرَّ سُرُوراً
كبيراً وقرَّرَ أَنْ يَشُدَّ رِحالَهُ الى النَهْرِ الذَّهَبِيِّ مِنْ
فَوْرِهِ . ولكنَّ أُنَى لَهُ بِالماءِ المُقَدَّسِ ؟ ذَهَبَ الى
الكَاهِنِ فَمَنَعَهُ إِياهُ ، لِذَلِكَ لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ أَنْ
يَذْهَبَ خِلْسَةً إِلَى المَعْبَدِ وَيَسْرِقَ قَدْحاً مِنْهُ دُونَ
أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ ، فَرَجَعَ بِذَلِكَ الى البَيْتِ فَرِحاً
جَدَّ لَانَ .

وما إنْ أَسْفَرَ الصَّبَاحُ ، حَتَّى هَبَّ هانز ، وَلَمْ
تَشْرُقِ الشَّمْسُ بَعْدُ ، وَوَضَعَ المَاءَ المُقَدَّسَ فِي قِنِينَةٍ ،

وَحَمَلَ مَعَهُ زُجَاجَتَيْنِ مِنَ النَّبِيدِ وَشَيْئًا مِنَ الْأَحْمِ فِي
سَلَّةٍ، ثُمَّ حَمَلَ عَصَاهُ الْجُبَلِيَّةَ، وَخَرَجَ إِلَى حَيْثُ الْجِبَالِ .
وَكَانَ عَلَى هَانِزٍ أَنْ يَمُرَّ فِي طَرِيقِهِ عَلَى السَّجَنِ ،
وَمَا كَادَ يَلْتَفِتُ إِلَى نَاحِيَتِهِ ، حَتَّى وَجَدَ وَجْهًا
يُطَلُّ مِنْ خَلْفِ قُضْبَانِ النَّافِذَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ وَجْهَ
شِقَارْتَسِ وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ الْحُزَنِ
وَإِلْعِيَاءِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ هَانِزٌ وَقَالَ : « صَبَاحَ الْخَيْرِ يَا أَخِي ،
أَلَا مِنْ رِسَالَةٍ أَحْمَلُهَا إِلَى مَلِكِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ ؟ »
فَأَنَارَ هَذَا التَّهَكُّمُ سَخِيمَةَ شِقَارْتَسِ ، وَامْتَعَصَ
وَجْهَهُ غَضَبًا ، وَأَخَذَ يَهْزُ قُضْبَانَ نَافِذَةِ السَّجَنِ بِكَلِّ

ما تَبَقَّى لَهُ مِنْ قُوَّةٍ . فلم يَكُنْ مِنْ هَانِزٍ إِلَّا أَنْ
اسْتَرْسَلَ فِي تَهْكُمِهِ وَضَحِكِهِ ، ناصِحًا أَيَّاهُ أَنْ يَأْخُذَ
مِنَ الرَّاحَةِ بِنَصِيبٍ وَافِرٍ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ . ثُمَّ
اِحْتَقَبَ سَلْتَهُ وَهَزَّ زُجَاجَةَ الْمَاءِ الْمُقَدَّسِ فِي وَجْهِهِ
أَخِيهِ ، وَسَارَ بِمُخْطَوَاتٍ عَنِيْفَةٍ ، يَحْدُوهُ الْأَمَلُ وَالطَّمَعُ .
وَكَانَ الصَّبَاحُ بَدِيْعًا ، يُدْخِلُ السَّعَادَةَ وَالْهِنَاءَ
إِلَى قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَبْحَثُ عَنْ نَهْرٍ
ذَهَبِيٍّ لِيُعْتَرَفَ مِنْهُ . وَكَانَ الضَّبَابُ الْمُنْدَى يَغْمُرُ
الْوَادِيَّ وَلَا يَكَادُ السَّائِرُ يَرَى قُنْنَ الْجِبَالِ الْوَاطِئَةِ
وَقَدْ بَرَزَتْ مِنْ ثَنَائِيَا هَذَا الْبَحْرِ الْمَائِجِ مِنَ السَّحَابِ



ثم احتقب سلته وهز زجاجة الماء المقدس في وجه أخيه

اللَّهُمَّ الْآرُؤُوسَهَا الْعَالِيَةَ ، الَّتِي قَدْ اُنْعَكَتْ عَلَيَّ
صُخُورِهَا أَشْعَةُ الشَّمْسِ فَكَسَتْهَا لُونًا وَرَدِيًّا ، فَجَعَلَتْهَا
رَهِيْبَةً كَأَنَّهَا هِيَ كُلُّ الْمَرْدَةِ . وَهَنَا وَهُنَاكَ كُنْتَ
تَرَى جَدَاوِلَ الثَّلْجِ الْمُنْحَدِرَةِ ، وَقَدْ بَدَتْ لَامِعَةً
كَأَنَّهَا لِمَحَاتُ الْبُرْقِ الْخَلَّابِ . وَفَوْقَ هَذِهِ الْجِبَالِ
وَفَوْقَ السُّحُبِ وَالضَّبَابِ الْمُتْرَاكِمِ ، وَفِي قَلْبِ السَّمَاءِ
الزَّرْقَاءِ الصَّافِيَةِ ، كُنْتَ تَرَى أَصْرَافَ هَذِهِ الْجِبَالِ
الْبَعِيدَةِ مَكْسُوتَةً بِالثَّلْجِ الْأَبْدِيِّ .

وَكَانَ النَّهْرُ الذَّهَبِيُّ الَّذِي يَنْبَعُ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ
الْمُرْتَفِعَاتِ الْوَاطِئَةِ ، لَا تَكَادُ الْعَيْنُ تَتَبَيَّنُ مَجْرَاهُ ،

أَلَا مِنْ رِذَاذِ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدِ فِي جَوْثِ شَلَالَتِهِ الْعُلْيَا .
وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَحِدهَا
حَصَرَ هَانِزَ كُلِّ تَفْكِيرِهِ ، وَجَمَعَ كُلَّ ارَادَتِهِ ، مُتَنَاسِيًا
كُلَّ مَا يَتَنِيهِ عَنْ عَزِيمَتِهِ ، مِنْ مَسَافَاتٍ شَاسِعَةٍ عَلَيْهِ
أَنْ يَقْطَعَهَا ، وَمِنْ صُخُورٍ عَلَيْهِ أَنْ يَتَسَلَّقَهَا ، حَتَّى
إِنَّهُ سَارَ بِمُخْطَى عَجَلِي سَرْعَانَ مَا أَجْهَدْتُهُ ، وَهُوَ لَمْ
يَتَعَدَّ بَعْدَ الشَّفُوحِ الْخُضْرَاءِ .

وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبَ هَانِزَ ، حِينَ وَجَدَ الثَّلُوجَ
الْمُتْرَاكِمَةَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى حَيْثُ النُّهْرُ الذَّهَبِيُّ ،
وَمَعَ مَعْرِفَتِهِ الْوَكِيدَةَ بَتَسَلُّقِ الْجِبَالِ وَبِالسَّيْرِ عَلَى

الثلوج ، فَإِنَّهُ لَمْ يُصَادِفْ فِي حَيَاتِهِ مَكَانًا أَشَدَّ
خَطَرًا مِنْ هَذِهِ الثَّلُوجِ الْمُتَرَاكِمَةِ . وَمِنْ كُلِّ رُكْنٍ
كَانَتِ الْمِيَاهُ السَّائِلَةُ تُحْدِثُ أَصْوَاتًا مُزْعِجَةً غَرِيبَةً ،
فَحِينًا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ مُرْتَفِعَةً بِنِغَمَاتٍ مُخِيفَةٍ ،
وَحِينًا كَانَتْ وَاطِئَةً مُتَقَطِّعَةً كَأَنَّهَا أَصْوَاتُ إِنْسَانِيَّةٍ
مُعَذِّبَةٍ .

وَكَانَتِ الثَّلُوجُ الْمُتَكَسِّرَةُ مُخِيفَةً فِي مَنَظَرِهَا ،
لَمْ تَقَعْ عَيْنُ هَانزٍ عَلَى مِثْلِهَا ، فَكَانَتْ تَبْدُو لَهُ
كَأَنَّهَا أَجْسَامٌ إِنْسَانِيَّةٌ ، وَكَانَ الضَّبَابُ مُرْعِبًا يُشِيرُ
الْخُوفَ فِي نَفْسِ الْمَسَافِرِ . وَأَخَذَتْ أذْنَا هَانزٍ تَتَقَلُّمُ

عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ رَأْسَهُ يُتَصَدَّعُ مِنْ أَصْوَاتِ الْمِيَاهِ
الْمُرْعَجَةِ الْمُخِيفَةِ .

وَكُلَّمَا سَارَ خُطْوَةً كَانَتْ هَذِهِ الْمَنَازِرُ تَزْدَادُ
فَظَاعَةً ، وَالْمَصَابِعُ شِدَّةً ، حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُهُ هَلَعًا وَيَأْسًا
وَمَا كَادَ يَأْتِي عَلَى نِهَآئِهِ هَذِهِ الثَّلُوجُ حَتَّى جَلَسَ
عَلَى حَافَةِ الصَّخْرِ وَقَدْ هَدَّتْهُ التَّعَبُ وَالْخَوْفُ ، وَلَمْ
يَجِدْ مَا يُرَوِي ظَمَأَهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الثَّلَاجِ ، بَعْدَ أَنْ
تَرَكَ سَلَةَ الطَّعَامِ خَلْفَهُ ، وَقَدْ أَثْقَلَتْ كَتِفَهُ مِنْ
حَمْلِهَا . وَبَعْدَ أَنْ اسْتَرَاحَ سَاعَةً كَامِلَةً ، اسْتَعَادَ
بَعْضَ قُوَّتِهِ وَقَامَ مِنْ جَدِيدٍ يُوَاصِلُ رِحْلَتَهُ ،

يَدْفَعُهُ الطَّمَعُ وَالْجَشَعُ .

* * *

صارتِ الأَرْضُ أَكْثَرَ سُهولةً ، ولكنها
كانتْ صَخْرِيَّةً جامِدةً ، دونَ أيِّ نباتٍ يجعلُ السَّيرَ
عليها بِقَدَمَيْهِ لِينًا مُرِيحًا ، ودونَ أيةِ شَجَرَةٍ يَسْتَظِلُّ
تَحْتَهَا مِنْ أشعَّةِ الشَّمْسِ التي أضحت لا تُطاقُ ،
بَعْدَ أنْ اُنْتَصَفَ النِّهَارُ ، وكانَ الهَوَاءُ لَافِحًا . فَأَنَارَ
كُلُّ هَذَا غُلَّةً هانِزًا ، وصارَ لا يَقْوَى على السَّيرِ
المُجْهِدِ . وأخذَ يَنْظُرُ الى زُجاجةِ الماءِ المَعْلَقةِ في
نِطاقِهِ وهو يُفَكِّرُ :

— « ثَلَاثُ قَطْرَاتٍ تَكْفِي ، ثَلَاثُ قَطْرَاتٍ
فَقَطُّ .. لِمَ لَا أَبْلُ شَفَتِي وَأُنْقِعُ غُلَّتِي بِيَعْضِ هَذَا
الماء...؟ »

فَفَتَحَ الزُّجَاجَةَ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يَضَعُهَا عَلَى
شَفَتَيْهِ حَتَّى لَمَحَتْ عَيْنَاهُ شَيْئًا مُلْقَى عَلَى جَانِبِ
الطَّرِيقِ ، إِنَّهُ يَتَحَرَّكُ ، نَعَمْ لَقَدْ كَانَ كَلْبًا صَغِيرًا
لَعَلَّهُ فِي آخِرِ دَقِيقَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ قَدْ قَتَلَهُ الْعَطَشُ
فَكَانَ لِسَانُهُ مُتَدَلِّيًّا ، وَأَطْرَافُهُ مُتَهَدِّلَةً ، وَقَدْ
تَجَمَّعَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ أُسْرَابٌ مِنَ النَّمْلِ الْأَسْوَدِ .
وَكَانَتْ عَيْنَاهُ جَا حِظَّتَيْنِ إِلَى حَيْثُ زُجَاجَةٌ



وجلس على حافة الصخر وقد هذه التعب والخوف

الماء التي أمسكها هانز بيديه ، ورفَعها الى شفَتَيْهِ
وَتَجَرَّعَ مِنْهَا جَانِبًا ، ثُمَّ رَكَعَ الْكَلْبَ الْمُسْكِينِ
بِقَدَمِهِ ، وَسَارَ فِي طَرِيقِهِ . وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ حِينَئِذِكَ
- دُونَ أَنْ يَعْرِفَ لَذَلِكَ سَبَبًا - أَنَّ ظَلًّا غَرِيبًا قَدْ
ارْتَفَعَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ فِي الْفِضَاءِ الْاِزْرَقِ :

ثُمَّ صَارَ الطَّرِيقُ أَقْسَى مِنْ ذِي قَبْلُ ، وَصَارَ
الْهَوَاءُ مُقْبِضًا يَهْبِجُ الْأَعْصَابَ ، وَاسْتَحَالَتْ أَصْوَاتُ
الْمِيَاهِ الْمَتَدَفِّقَةِ إِلَى أَصْوَاتِ سُخْرِيَّةٍ وَهَزْءٍ . ثُمَّ أَخَذَ
الْعَطَشُ يَشْتَدُّ بَعْدَ كُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا .

وَمَرَّتْ سَاعَةٌ وَهُوَ كَذَلِكَ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى زُجَاجَةٍ

الماء التي في نطاقه فوجدَ نصفها قد فرغَ ، ولكن
ما زالَ بها أكثرُ من ثلاثِ قطراتٍ . فوقفَ ورفَعَ
الزُّجاجةَ الى شفتيه ، وما كادَ يفعلُ حتى أحسَّ
بشيءٍ يتحركُ حوَاليه ، فنظَرَ فوجدَ طفلاً صغيراً
مُلقي على الصَّخْرِ يُنازعُ الحياةَ ، يَخْفُقُ صدرُهُ من
شِدَّةِ العَطشِ ، وقدَ أُسْبِلَ جُفونُهُ وَتَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ
وجفَّتَا .

نظَرَ اليه هانزٌ بتوَدِّةٍ ، ورفَعَ الزُّجاجةَ الى فيه
وشربَ وسارَ في طريقه . وفي ذلك الحينِ شاهدَ سحابةً
سوداءَ غطَّتْ أشعةَ الشَّمسِ ، وظلالاً أشبهَ بالحَيَاتِ

تَرْحَفُ عَلَى سَفُوحِ الْجِبَالِ .

وكان هانز يُجاهدُ السَّيْرَ جهاداً ، ومع أنَّ
الشمسَ قد بدأتْ تنحدرُ الى الغروبِ إلاَّ أنَّها لم
ترفَّهُ عنه ، فكانَ الهواءُ ثَقِيلاً يَلْفَحُ جَبْهَتَهُ . لكنْ
صارَ الهدفُ قريباً ، فهاهوَ النهرُ الذَّهَبِيُّ يتدفَّقُ
فوقَ رأسِهِ ، لذلكَ تغلَّبَ على ضعفِهِ ووَثَبَ من
جديدٍ لِكَيْ يَأْتِيَ على بَقِيَّةِ رِحْلَتِهِ .

وفي تلكَ اللَّحظةِ سَمِعَ صُراخاً خافِئاً فتلفتَ الى
حيثُ الصَّوْتُ فوجدَ شيئاً قد أبيضتْ شعورُهُ
مُتَمَدِّداً على الصَّخْرِ . وقد أصفَرَّ وجهُهُ وغارتْ عيناهُ

وكانَ يَدُكَ بِنَظَرِهِ عَلَى الْيَأْسِ الْقَاتِلِ . فَمَا كَادَ يَرَى
هَانِزَ حَتَّى مَدَّ ذِرَاعَهُ وَهُوَ يَصِيحُ بِصَوْتٍ مُتَحَشِّرِجٍ
« أُرِيدُ مَاءً .. مَاءً .. إِنْ نِي أَمُوتُ .. »

فَأَجَابَ هَانِزٌ « لَيْسَ لَدَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ .. إِنَّكَ
قَدْ أَخَذْتَ نَصِيْبَكَ مِنَ الْحَيَاةِ .. » وَسَارَ فِي طَرِيقِهِ .
وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمَعَ الْبُرْقُ ثَلَاثًا كَأَنَّهُ السِّيفُ
الْمَسْلُوكُ فَأَضَاءَ السَّمَاءَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَتَرَ كَهَا غَارِقَةً
فِي الْعَتَمَةِ .

وَكَانَتِ الشَّمْسُ ، وَهِيَ غَائِبَةً ، كَأَنَّهَا كُرَةٌ
حَمْرَاءُ مُتَوَهَّجَةٌ فِي فِضَاءِ الْأُفُقِ .

وهاهو هانز قد وصلَ الى الهوَّةِ التي يُنسابُ
مِنْهَا النهرُ الذَّهَبِيُّ ، الذي كَسَتْ أَمْوَاجُهُ أَشِعَّةً
السَّمْسِ الْغَارِبَةِ ، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا أَلْسِنَةٌ مِنَ النَّارِ ،
وَاسْتَحَالَ زَبَدُهُ الى تَوْهُجَاتٍ دَامِيَةٍ . وَأَصْبَحَتْ
أَصْوَاتُ مِيَاهِهِ الْمَتَدَفِّقَةِ قَوِيَّةً نَفَازَةً كَأَنَّهَا الرَّعْدُ
حَتَّى أَنَّ حَوَاسَّ هَانزٍ قَدْ تَلَبَّدَتْ ، وَأَصْبَحَ فِي شِبْهِ
غَيْبُوبَةِ الْحَمَى .

وَقَفَ هَانزٌ عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ وَفَكَرَ الزُّجَاجَةَ مِنْ
نِطَاقِهِ ، ثُمَّ قَذَفَ بِهَا إِلَى قَلْبِ الْمَاءِ . وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ
يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى عَرَّتْهُ رِعْشَةٌ تَلَجَّتْ أَطْرَافَهُ ،



ثم قذف بها الى قلب الماء

وَجَعَلَتْهُ يَهْتَزُّ فِي مَكَانِهِ ، وَيَصِيحُ ، وَيَسْقُطُ ..
وَمَا أَسْرَعَ أَنْ أُخْتَفِيَ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ الْمُزْبِدِ الَّذِي
غَمَرَهُ وَغَمَرَ صُرَاخَهُ . وَأَخَذَ هَدِيرُ النَّهْرِ الْحَزِينِ
يَرْتَفِعُ ، وَأَخَذَ اللَّيْلُ يَسْدِلُ سِتُورَهُ عَلَى ذَلِكَ
الْمَكَانِ .



الفصل الرابع

أَخَذَ جُلُوكَ الْمَسْكِينِ يَنْتَظِرُ عَوْدَةَ هَانزِ بِفَارِغٍ
الصَّبْرَ ، وَأَحْسَّ بِالْمِ شَدِيدِ لِعَيْبَتِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ
فَائِدَةً مِنَ الْإِنْتِظَارِ ، ذَهَبَ إِلَى شِقَارْتَسِ فِي السَّجْنِ
وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ .

وَكَانَ فَرَحُ شِقَارْتَسِ بِذَلِكَ عَظِيمًا ، لِأَنَّهُ تَيَقَّنَ
أَنَّ هَانزَ قَدْ أَصَابَتْهُ لَعْنَةُ مَلِكِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ فَتَحَوَّلَ
إِلَى حَجَرٍ أَسْوَدَ ، فَصَارَتْ لَدَيْهِ الْفُرْصَةُ سَاحَةً

لَكِنِّي يَاخُذُ لِنَفْسِهِ الذَّهَبَ كُلَّهُ دُونَ أَنْ يَتَمَسِّمَهُ
مَعَهُ أَحَدًا.

ولكنَّ جُلُوكَ كَانَ حَزِينًا مَهْمُومًا عِنْدَ
مَا فَكَّرَ فِي ذَلِكَ ، وَأَخَذَ يَبْكِي طَوْلَ لَيْلِهِ .

ولما أَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، لَمْ يَجِدْ جُلُوكَ لُقْمَةً فِي
الْبَيْتِ يَا كُلِّهَا وَلَمْ يَجِدْ دِرْهَمًا وَاحِدًا . لِذَلِكَ لَمْ يَرِ
إِلَّا أَنْ يَذْهَبَ وَيُؤَجَّرَ نَفْسَهُ عِنْدَ أَحَدِ الصَّاعَةِ ،
وَأَخَذَ يَعْمَلُ بِجِدِّ كُلِّ يَوْمٍ ، وَيَعْمَلُ بِمَهَارَةٍ وَدَقَّةٍ
حَتَّى جَمَعَ قَدْرًا كَافِيًا مِنَ الْمَالِ ، ذَهَبَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ
وَأَعْطَاهُ جَمِيعَهُ إِلَى شِفَارْتَسْ ، فَبِذَلِكَ خَلَّصَهُ مِنَ السِّجْنِ



ذهب به الى السجن وأعطاه جميعه الى سفارتس

وكم كان سرور شِقارتس بِمُخْرُوجه من السَّجْنِ
عظيماً لآنَه أَجْمَعَ الرَّأْيَ عَلى أَن يذَهَبَ لِيُعْتَرِفَ من
ذَهَبِ ذَلكَ النَّهْرِ . وَلَكِنَّ جُلُوكَ اسْتَعَطَفَه أَن يُغَيِّرَ
من عَزَمِهِ ، وَأَن يذَهَبَ لِلبَحْثِ عَن هانز

ولما عَلمَ شِقارتس أَن هانز قد سَرَقَ المَاءَ المُقَدَّسَ
فَكَرَ أَن هَذَا مِمَّا لا يَرْضاهُ مَلِكُ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ ،
لذَلكَ أَخَذَ شَيْئاً من مالِ جُلُوكِ ، وَذَهَبَ عَلى كاهنِ
شَرِّيرٍ وَابْتاعَ مِنْهُ شَيْئاً من ذَلكَ المَاءِ ، وَظَنَّ أَنَّ
ذَلكَ مِمَّا يُرْضِي مَلِكَ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ .

وَاسْتَيْقَظَ شِقارتس في الصَّبَاحِ الباكِرِ ، قَبْلَ أَن

تشرق الشَّمْسُ ، حاملاً شيئاً من النَّبِيدِ والخُبْرِ
وزُجاجةً بِها الماءُ المقدَّسُ ، وسارَ الى حيثُ الجِبَالُ
ولم يكنْ شِفارتسَ أقلَّ حَيْرَةً من هانزَ عندما أرادَ
أنْ يعبرَ مَنْطِقَةَ الثلجِ ، بعد أنْ خَلَفَ وراءَهُ سَلَّةَ
الطَّعامِ .

ولم يكنِ اليومُ مُغَيِّماً بالسَّحَابِ ، بيدَ أنهُ كانَ
ثَقِيلاً وكانتِ التَّلَالُ قَبِيحَةً مُعْتَمَةً . وعندما وصلَ
الى تلكِ المنطقَةِ الحَجْرِيَّةِ ، بدأَ يشعُرُ بالعَطَشِ ،
ولكنَّهُ ما كادَ يرفعُ زُجاجةَ الماءِ الى شَفْتَيْهِ ،
حتى وَقَعَ بَصْرُهُ على ذلكِ الطفلِ ، مُلقَى على

الاحجارِ ، وهو يطلب منه قطرة ماء

فنظر اليه شِقاتس وقال « يُريدُ ماءً ؟ . وليس

لدىَّ نصفُ ما يكفيني ! » . ثم سار في طريقه .

فشعرَ حينذاك بأنَّ أشعةَ الشَّمسِ قد صارتُ باهتةً

وأنَّ سحابةً سوداءَ قد ارتفعتُ من الغربِ .

ثم سارَ ساعةً أُخرى ، وبدأَ العطشُ يَفْرِى

صدره ، ولم يجدْ بُدًّا من أنَّ يبللَ ريقهُ بشيءٍ من

الماءِ ، ولكنه ما كادَ يفعلُ حتى رأى ذلك الشيخَ

مُلقًى في طريقه فسأله شيئاً من الماءِ

فنظرَ اليه شِقاتس وقال « يريدُ ماءً ؟ ليس

لدى نصف ما يكفيني . « ثم سار في صريقه .
ثم تصوّر من جديد أن أشعة الشمس قد
أخذت تبهت ، وكأنه يرى ضباباً دموياً قانياً يُغطّي
وجه الشمس ، وأن تلك السحابة السوداء قد ارتفعت
في الفضاء مضطربة كأنها بحر غاضب ، وهي
تعكسُ ظلالاً طويلةً في طريقه .

ثم ارتقى ساعةً أخرى ، وبدأ يشعُر من جديد
بالعطش ، ولكنه ما كاد يرفعُ زُجاجة الماء الى
شفتيه حتى تصوّر أنه يرى أخاه هانز ملقياً على الارض
قد هدّه التعبُ ، واذا به يمدُّ ذراعهُ اليه يطلبُ ماءً

فَضِحِكَ شِفَارَتِسْ سُخْرِيَّةً وَقَالَ لَهُ :

« أَنْتَ هُنَاكَ ؟ تَذَكَّرْ قُضْبَانَ السَّجْنِ يَا فِتَايَ

الْعَزِيزَ . تُرِيدُ مَاءً ؟ هَاهَا . أَنْظِرْهُ أَنِّي أَحْمِلُ هَذَا

الْمَاءَ لِأَجْلِكَ ؟ »

ثم سار في طريقه . بيد أن شِفَارَتِسْ عندما تَخَطَّاهُ ،

تصوَّرَ أَنَّهُ لَمَحَّ ابْتِسَامَةً تَهْكِمِيَّةً عَلَى شَفْتَيْهِ الذَّابِلَتَيْنِ

ولكنه ما كاد يسير بضع أقدامٍ حتَّى تَلَفَّتْ إِلَى

الوَرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ .

وَشَعَرَ هَانِزٍ حِينَئِذٍ أَنَّ خَوْفًا مُهْلِكًا قَدْ حَطَّ

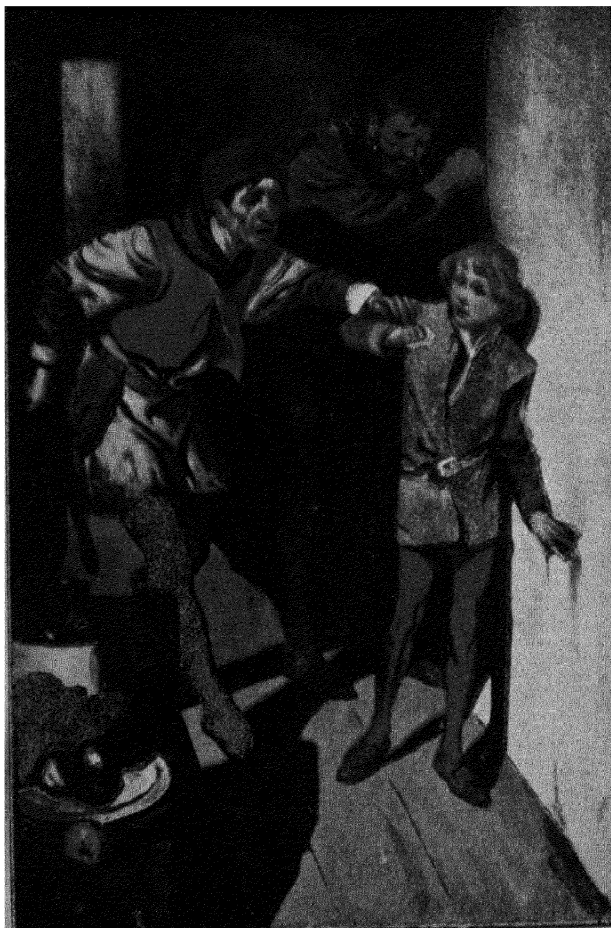
عَلَى أَكْتَافِهِ ، لَمْ يَعْرِفْ لَهُ سَبَبًا .



وشعر هانز حينذاك بأن خوفا مهلكا قد حظ على أكتافه

غَيْرَ أَنْ شَهْوَةَ الذَّهَبِ الَّتِي تَغْلِي فِي صَدْرِهِ ، قَدْ
تَغَلَّبَتْ عَلَى تَعْبِهِ وَخَوْفِهِ ، فَاَنْطَلَقَ جَادًّا فِي السَّيْرِ .
ثُمَّ نَظَرَ فَاِذَا بِتِلْكَ السَّحَابَةِ السَّوْدَاءِ قَدْ اِرْتَفَعَتْ
اِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، وَكَأَنَّ بَرَقًا خَاطِفًا يَتَأَلَّقُ مِنْهَا ،
وَكَأَنَّ أَمْوَاجَ سَوْدَاءِ تَتَقَاذَفُ فِي الْفَضَاءِ السَّحِيقِ .
وَهُنَالِكَ فِي الْغَرْبِ حَيْثُ الشَّمْسُ قَدْ بَدَأَتْ تَغِيْبُ
كُنْتَ تَرَى بُحَيْرَةً حُمْرَاءَ كَأَنَّهَا مِنَ الدِّمِّ . ثُمَّ هَبَّتْ
رِيْحٌ عَاتِيَةٌ مَزَقَتْ تِلْكَ السُّحُبَ الْحُمْرَاءَ وَدَفَعَتْهَا اِلَى
الظَّلَامِ الْبَعِيدِ .

وَعِنْدَمَا وَصَلَ شِفَارَتَسَ اِلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ



كَانَتْ أَمْوَاجُهُ سُودَاءَ كَأَنَّهَا السُّحُبُ الْقَائِمَةُ ،
وَلَكِنْ زَبَدُهُ كَانَ يُشْبِهُ اللَّهَبَ ، وَمَا كَادَ يُلْقَى
بِزُجَاجَةِ الْمَاءِ فِيهِ حَتَّى كَانَتْ أَصْوَاتُ الْمَاءِ وَأَصْوَاتُ
الرَّعْدِ تَقْصِفُ فِي الْمَكَانِ ، وَحَتَّى كَانَ الْبَرْقُ
يُخَطَفُ بَصَرَهُ ، وَالْأَرْضُ تَفُوصُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ؛
وَالْمِيَاءُ تُغَطِّي عَلَى صَوْتِ اسْتِغَاثَتِهِ .

وَأَخَذَ هَدِيرُ النَّهْرِ يَرْتَفِعُ وَيَشْتَدُّ كُلَّمَا تَقَدَّمَ
الَّيْلُ وَهُوَ يَلْتَطِمُ

بِالصَّخْرَتَيْنِ السُّودَاوَيْنِ

الفصل الخامس

ولما وَجَدَ جُلُوكَ أَنَّ شِفَارَتَسَ لَمْ يَرْجِعْ ، نُمٌّ
لِذَلِكَ غُمَّ كَثِيرًا ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاذَا يَصْنَعُ .

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ ، اضْطُرَّ إِلَى
أَنْ يَذْهَبَ إِلَى ذَلِكَ الصَّائِغِ وَيَسْتَأْجِرَ نَفْسَهُ مَرَّةً
أُخْرَى . وَاشْتَغَلَ عِنْدَهُ طَوِيلًا حَتَّى جَمَعَ صُبَابَةً
مِنَ الْمَالِ .

وَبَعْدَ أَنْ قَضَى جُلُوكَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ شَهْرًا

أو اثنين سَمَّ هذه الحياةَ ، وأجمع رأيه على أن
يذهبَ ليُجربَ حظَّهُ عندَ النَّهرِ الذَّهَبِيِّ ، وهو
يُشجِّعُ نفسه بقوله : « إِنَّ ذلِكَ المَلِكَ الصَّغِيرَ كانَ
عَطوفًا رَحِيمًا بِي ، وما أَظنُّ أَنَّهُ يَقسو عَلَيَّ فَيُحِيلُنِي
إلى صَخْرَةٍ سوداءِ »

وهكذا ذهبَ جُلُوكُ إلى الكاهنِ حيثَ أعطاهُ
شَيْئًا من المَاءِ المَقْدَسِ ، ثم حملَ شَيْئًا من الخُبْزِ في
سَلَّةٍ ، وسارَ من الصَّبَاحِ الباكرِ إلى حيثُ
الجبالُ .

وإذا كانَ ذلكَ الثلجُ قد أَجهدَ أخوِيه من

قبلُ ، فإنَّ الجُهْدَ الذي أُصابَ جُلُوكَ الصَّغِيرَ أضعافَ
أضعافٍ ما أُصابَ أَخَوَيْهِ ، فجلوك لم يكن بالعارف
بتسلُّقِ الجبالِ مثلَهُما ، وما هوَ في قُوَّتِهِما وبأسِهِما ،
فكم من مرَّةٍ سَقَطَ وهوَ في طريقهِ حتَّى فقدَ سَلَّةَ
خُبْرِهِ ، وَكَمْ أزعَجَتْهُ تلكَ الأصواتُ الغريبةُ ،
ولكن في النهايةِ عَبَرَ تلكَ الثلُوجَ وجلسَ واهيَ
القوى ليستريحَ .

فما استراح قليلاً حتى أخذ يرْتَقِي ذلكَ التلِّ ،
وقد بدأ الهجيرُ واشتدَّ الحرُّ ، وبعد ساعةٍ أخذَ
العطشُ منه كلَّ ما أخذٍ ، ولم يجدْ بُدًّا من أن يبُلَّ

أوامه من زُجاجةِ الماءِ ، ولكنه - كما حدث
لأخويه - ما كاد يفعل حتى رأى شيخاً ضعيفاً
يتوكأ على عصاه وهو ينحدرُ إليه من رأس التلِّ
« إنني تعبٌ يا بُنَيَّ ومُجهدٌ من العطشِ ألا من

جرعة ماء؟ »

ولما وجده جُلوك كذلك لم يسعه إلا أن يُقدمَ
له زُجاجةِ الماءِ ، راجياً إياهُ ألا يتجرَّعَ كل ما فيها .
ولكنَّ ذلك الشيخَ لم يكتفِ بالقليلِ إذ أرجعَ
إليه الزُجاجةَ وقد فرغَ ثلثها . غيرَ أنه دعا له برحلةٍ
مُوفقةٍ . وسار جُلوك في طريقه فشعرَ بأنه قد أصبحَ

سهلاً مُعَبِّدًا تحت قدميه ، وَسَرَّعَانَ مَا نَبَتَتْ حَوْلَهُ
بَعْضُ الْحَشَائِشِ وَرَأَى الْفَرَاشَ يَحُطُّ عَلَيْهَا .

ثم سار ساعةً ، وبدأ العطشُ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ
وَيَضْطُرُّهُ إِلَى أَنْ يَفْكَرَ فِي بَلِّ شَفْتَيْهِ بِالْمَاءِ ، وَلَكِنَّهُ
مَا كَادَ يَرْفَعُ الزُّجَاجَةَ إِلَى فِيهِ حَتَّى رَأَى طِفْلاً مَلْقَى
عَلَى الْأَرْضِ وَهُوَ يَصِيحُ يَطْلُبُ مَاءً .

فَأَخَذَ جُلُوكَ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ جِهَادًا ، حَتَّى اسْتَقَرَّ
عِزْمُهُ عَلَى أَنْ يَحْتَمِلَ الْعَطَشَ قَلِيلًا فَيُنْجِدَ ذَلِكَ
الطِّفْلَ ، فَوَضَعَ زُجَاجَةَ الْمَاءِ عَلَى فِيهِ الصَّغِيرِ ، فَتَجَرَّعَ
مَا فِيهَا إِلَّا قَطْرَاتٍ قَلِيلَةً . ثُمَّ جَرَى بِأَسْمًا إِلَى أَسْفَلِ



فتجرع ما فيها الا قطرات قليلة

التَّلِّ ، وَأَخَذَ جُلُوكَ يِرْعَاهُ حَتَّى صَارَ فِي حَجْمِ
النَّجْمَةِ الْبَعِيدَةِ

عَاوَدَ جُلُوكَ الْارْتِقَاءَ وَمَا أَشَدَّ عَجْبَهُ عِنْدَمَا
شَاهَدَ حَوَالِيَهُ كُلَّ صُنُوفِ الزُّهُورِ وَقَدْ يَنْعَتُ
وَرَفَعَتْ رَأْسَهَا ، وَأَلْوَانَ الْفَرَاشِ وَهِيَ تَحُطُّ فِي كُلِّ
مَكَانٍ فَشَعَرَ بِسَعَادَةٍ وَهْنَاءِ .

وَمَا إِنْ سَارَ جُلُوكَ سَاعَةً ، حَتَّى أَصْبَحَ عَطَشُهُ
لَا يُحْتَمَلُ ، فَتَفَقَّدَ زُجَاجَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ بِهَا إِلَّا قَطْرَاتٍ
مَعْدُودَةً ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَسِّهَا ، بِيَدِ أَنَّهُ عِنْدَمَا كَانَ
يُرْجِعُ الزُّجَاجَةَ إِلَى نِطَاقِهِ ، وَقَعَ بَصْرُهُ عَلَى ذَلِكَ

الكلبِ الذِي مرَّ به هانز ، وهو يلهثُ عطشاً .

فوقف جُلوك ونظر اليه هُنيئَةً ثم الى النهرِ

الذَهَبِيِّ الذِي لا يَبْعُدُ عنه كثيراً ، وتذكر قولَ

المَلِكِ الصَّغِيرِ « إن من يَفْشَلُ في مُحاولته الأولى يَفْشَلُ الى

الأبدِ » . وحاول أن يذهبَ ويتركَ الكلبَ حيثُ

هو ، ولكن هذا أخذَ ينبَحُ بصوتٍ خافتٍ ،

استرعى شفقة جُلوك ، فوقفَ ونظرَ اليه :

« يآله من حيوانٍ مِسْكِينٍ ! إنه لا شكَّ يموتُ

إذا تركته حتى أرجع . »

ثم اقتربَ منه أكثرَ من ذِي قبلُ ، وأخذَ

الكلبُ يُحدقُ إليه النظرَ بذلَّةٍ وانكسارٍ ، حتى
لَمْ يَعدْ يُطيقُ رؤْيَاهُ في محنتِهِ ، وثارتُ نائرةُ الرَّحمةِ
في قلبِهِ ففتَحَ الزُّجاجةَ وصبَّ القَطراتِ الباقيةَ في
فمِ الكلبِ وَهُوَ يَتَمَتُّمُ : « قُبِّحَ الْمَلِكُ وَقُبِّحَ
ذَهَبُهُ .. »

فوقَفَ الكلبُ على ساقِيهِ الأَخِيرَتَيْنِ .
وأخْفَى ذَنبَهُ ، وأخذتْ أُذُنَاهُ تَطوُلُ وتَطوُلُ وتَسْتَحِيلُ
حَرِيرِيَّةً ثُمَّ ذَهَبِيَّةً ، وَأَصْبَحَ أَنْفُهُ أَحْمَرَ ! وأخذتْ
عَيْنَاهُ تُوَمِّضُ بِجِدَّةٍ . وفي لَحْظَةٍ اختفى الكلبُ ،
وإذا بذلك الصديق القديم « مَلِكِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ »

أمامَ جُلُوكِ .

فَقَالَ الْمَلِكُ الْقَزْمُ « شُكْرًا لَكَ ، لَا تَخَفْ

يَا بُنَيَّ » وَكَانَ جُلُوكِ قَدْ أَبَدَى شَيْئًا مِنَ الدَّهْشَةِ لِهَذَا

الَّذِي مَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ . « وَمَاذَا لَمْ تَأْتِ قَبْلَ الْآنِ

بَدَلًا مِنْ أَنْ تُرْسِلَ أَخَوَيْكَ اللَّعِينَيْنِ ، الَّذِينَ

قَدْ أَجْهَدَانِي عِنْدَ مَا حَوَّلْتُهُمَا إِلَى صَخْرَتَيْنِ . نَعَمْ ،

إِلَى صَخْرَتَيْنِ جَامِدَتَيْنِ صَلْدَتَيْنِ »

فصاح جُلُوكِ « يَا لَلَّهِ ! هَلْ أَنْتَ مِنَ الْقَسْوَةِ

حَتَّى تَفْعَلَ ذَلِكَ ؟

— « مِنَ الْقَسْوَةِ ؟ لَقَدْ سَكَبَا مَاءَ نَجَسًا فِي



شكرا لك لانخف يا بني

نهرى ، أَتَظُنُّ أَنى أَتَسَاهلُ فى أمر ذلك ؟ »
فقال جُلُوكِ « ولكننى أؤكِّدُكَ - أقصد
جِلالَتِكُمْ - أن ذلك الماء كان مقدساً »
فقال القزَمُ « رُبما كان ذلك ، ولكن - وأخذت
تبدؤ على وجههِ أماراتُ الجِدِّ - ولكنَّ الماء الذى
يُمنعُ عن الذى يكادُ يموتُ عطشاً ، وعن المُجهدِ
المنهوكِ ، ليسَ بماءٍ مُقدَّسٍ ولو بارَكهُ أولياءُ الأرضِ
جميعاً ؛ وأن الماء الذى تحويه آنية الرَّحمةِ ماءٌ
مقدسٌ ولودنَّستهُ أجسامُ الموتى .. »
وما أتمَّ كلامه ، حتَّى انحنى وقطفَ زُبُقَةً

يَبِضَاءَ عِنْدَ قَدَمَيْهِ ، وَعَلَى أَوْرَاقِهَا الْبَيْضَاءُ كَانَتْ
ثَلَاثُ قَطْرَاتٍ مِنَ النَّدى ، سَكَبَهَا الْقَزْمُ فِي الزُّجَاجَةِ
الْفَارِغَةِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا جُلُوكَ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَقَالَ لَهُ
« اسْكُبْ هَذِهِ الْقَطْرَاتِ فِي النَّهْرِ ، ثُمَّ اهْبِطْ
مِن جَانِبِ التَّلَالِ إِلَى حَيْثُ وَاْدَى الْكَنْزِ . وَأَسْرِعْ
الْخَطَى ... »

وَبَيْنَمَا كَانَ يَتَكَلَّمُ ، أَخَذَ شَكْلَهُ يَخْتَفِي شَيْئًا
فَشَيْئًا . وَأَخَذَتْ أَلْوَانُ رِدَائِهِ تَسْتَحِيلُ إِلَى شِبْهِ
ضَبَابٍ مَنْدَى ، تَمُنْطِقَ بِهِ كَأَنَّهُ نِطَاقٌ مِنْ قَوْسِ قُرْجٍ
وَأَخَذَتْ أَلْوَانُ تَبَهَّتْ ، وَالضَّبَابُ يَنْقَشِعُ فِي الْهَوَاءِ

وإذا بِمِلْكِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ قَدْ اخْتَفَى «

وأخذ جُلُوكَ يَرْتَقِي إلى صَفَةِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ ،
وكانتْ أَمْواجُهُ صَافِيَةً ، كأنَّها البَلُورُ ، وزاهيةٌ
كأنَّها أشعةُ الشَّمْسِ .

ولما سَكَبَ قَطراتِ النَّدى ، انْفَرَجَ الماءُ عن
دائِرَةٍ صَغِيرَةٍ اسْتَقَرَّتْ فيها ، ثم التَّامَتْ بِصوتِ
موسيقى .

وأخذَ جُلُوكَ يَرُقُّ ذلِكَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ . وما
أشدَّ يأسَهُ حينذاك ، لِأَنَّ مِياهَ النَّهْرِ لَمْ تَتحوَّلَ إلى ذَهَبٍ
خالصٍ فقط ، بَلْ لِأَنَّها أَخَذَتْ تَغْيِضُ شَيْئاً فشيئاً .

ولكن جُلُوكَ أَطَاعَ وَصِيَّةَ ذَلِكَ الْقَزِيمِ ،
وَانْحَدَرَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ إِلَى وَادِي الْكَنْزِ ،
وَبَيْنَا هُوَ فِي طَرِيقِهِ ، تَصَوَّرَ أَنَّهُ يَسْمَعُ خَرِيرَ الْمَاءِ
يَجْرِي تَحْتَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . وَمَا إِنْ وَصَلَ حَتَّى
رَأَى جَدُولًا كَأَنَّهُ النُّهْرُ الذَّهَبِيُّ ، يَنْبُعُ مِنْ فَجْوَةٍ
بَيْنَ الصُّخُورِ ، ثُمَّ يَتَشَعَّبُ إِلَى جَدَاوِلَ عَدِيدَةٍ بَيْنَ
أَكْوَامِ الرَّمْلِ الْحُمْرَاءِ .

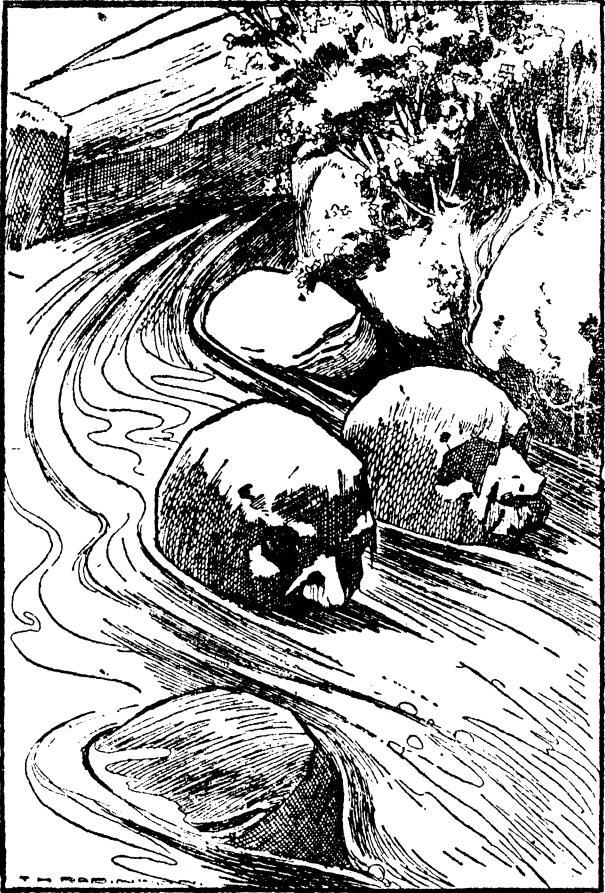
وَبَيْنَمَا كَانَ جُلُوكَ يُحَدِّقُ النَّظْرَ إِلَى وَادِي
الْكَنْزِ ، إِذَا بِالْحَشَائِشِ تَظْهَرُ عَلَى جَوَانِبِ تِلْكَ
الْجَدَاوِلِ ، وَإِذَا بِالنَّبَاتَاتِ الزَّاحِفَةِ تُغَطِّيهَا ، وَإِذَا

بالبراعِمُ تَتَفْتَحُ فِجَاءً كَأَنَّهَا النُّجُومُ عِنْدَمَا تُظْلَمُ السَّمَاءُ .
وهكذا استحال وادى الكنزِ الى حديقةٍ يانعةٍ
واسترد ذلك التِراثُ بِالْحُبِّ بَعْدَ أَنْ أَضَاعَتْهُ الْقَسْوَةُ .

* * *

ثم ذهب جُلُوك الى الوادِى، وعاشَ فِيهِ من
جديدٍ ، وصار بابُهُ مأوًى الْفُقَرَاءِ ، وصارت مَخازِنُهُ
تَزْخَرُ بِالغَلَّةِ وَالْكُنُوزِ . وهكذا صارَ ذلك النهرُ ،
كما وعد الْقَزْمُ ، نَهراً من الذَّهَبِ .

وَالى هذا اليومِ مَافَتِيءُ أَهْلِ ذلكِ الوادِى
يُشِيرُونَ الى ذلكِ المَكَانِ الَّذِى سَكَبَتْ فِيهِ قَطَرَاتُ



الاخوان الأسودان

الندى الثلاثة ، ويتبعون مجرى النهر الذهبى
تحت الأرض ، الى وادى الكنز .

وعند مُنحَدَرِ النهرِ الذهبى ، ما زلت ترى
صخرتين سوداوين يتدفق حولهما الماء بصوت
حزين عند غروب كل شمس .

وما زال سكاُن ذلك الوادى ، يدعون تينكما

الصخرتين :

« الاخوين الأسودين »

مكتبة لطفنا الخيرية

شعارها

وع الطفل يعلم نفسه بنفسه

تنشرها:

مكتبة عيسى الباني الخيرية
وشركاه بالقاهرة

يصدرها:

أحمد عطية السيد
المفتش بوزارة المعارف

